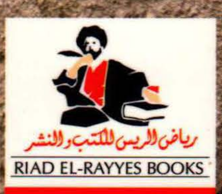
نجوى بن شتوان

صدفة جارية

قصص





صدقة جارية

نجوى بن شتوان

صدفة جارية

قصص



An Ongoing Coincidence

By Najwa BenShatwan

First Published in April 2019

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-709-3

الطبعة الأولى: نيسان (أبريل) ٢٠١٩

صورة الغلاف للمؤلفة

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

المحتويات

أنا لا أستورد الفكرةَ،
لكنَّ الحنين،
عندما يعصف بالجرحِ الذي في داخلي،
تولد الفكرة في القلبِ،
كجرحٍ آخرَ يدفعني كي أتغنّى بجراحِ الآخرين.

الشاعر محمد الشلطامي

خرابَيْنْ يا وطن ما فيك حدْ
حزنك مْجد
ومَنْ ما عقبْ فيك غير اللمَدْ
خرابَيْنْ يا وطن من فيك باقي
يجلّي انكادي ويبيّضْ العقل بعد السوادي

الشاعرة فاطمة الهونية

١

اركض يا جورج

كان من عادة الموتى في بنغازي أن يزوروا أهْليهم متى أرادوا، وهذا الأمر يعني أنّهم سيتدخلون في كل كبيرة وصغيرة تخصّهم، وأنه إذا ما حدثت ثورة فسيشاركون فيها أيضاً، إذ لا مانع لديهم من الموت مرتين. كان ذلك ديدن الموتى من دون تمييز في بنغازي كلها، بمن فيهم رقود جبانة النصارى الذين واظبوا على الخروج مساءً في حللهم الجميلة النظيفة كأنّهم يأمّون عرساً، والذين يتقابلون في الطريق مع موتى جبانة المسلمين، عائدين من الجلوس في المقاهي، كأنهم عائدون من دوام عمل.

كان جورج آرثر جورج من رقود مقبرة «الفويهات» العريقة النظيفة، يواصل موته في بذلة جميلة من ماركة غوتشي، وجوربين حريريين، وأظفار مقلّمة، وحذاء نظيف، وذلك قبل أن يفرّ منها إلى جبانة المسلمين في «الهواري» في إثر مداهمة داعش المقبرة وتكسيرها شواهد قبورها وإهانة كرامة رقودها.

كان جورج عائداً من مشوار مرهق، بالكاد عثر في ختامه على وردتين في مشروع الصفصفة[١]، وحملهما لأبيه بمناسبة الذكرى السنوية لوفاته. كان يعدّ الخطوات المتبقية إلى المقبرة عدّاً حين لاحت له البلدوزر والجلاليب الخفاقة واللحى الشعثاء الطويلة.

أدرك أنها النهاية، ببعد نظر لا يحتاج إلى تفكير، فرمى الوردتين فوراً على الطريق، فدهستهما السيارات التي لم تعتد التوقف حتى وإن دهست أحداً، وأخذ يجري هارباً من هذا اليوم الأسود المشؤوم في تاريخ موته، كأنّه يهرب من الموت من دون أن يدري إلى أين، فهو في الآخرة، ولا يستطيع الهرب منها إلى الدنيا. فمن عاش فخَّ الحياة لن يُولي وجهه إليها مهما بلغ مقدار ما يواجهه في آخرته من عذاب.

ربض جورج آرثر جورج عند طريق مستشفى الأمراض النفسية أسفل الشجرة الوحيدة الموجودة هناك، يأمل في مرور شاحنة يتعلق بها إلى مقبرة المسلمين.

لم يتوقف أحد من السائقين ليقلّه، لاعتقادهم أنه مريض عقلي فرّ من المستشفى. وفي حال توقف فاعل خير، فإنه سيعود به إلى المستشفى كيلا يتسبب بأي ضرر للناس في الخارج، لا سمح الله.

لذلك، كان عليه الفرار من الشجرة، ومن داعش، ومن الشاحنات، ومن فاعلي الخير أيضاً، فوقف قرب أكشاك الباعة المهاجرين، من أجل إعطاء انطباع بأنه إمّا مهاجر بعد سنوات من الاندماج، وإمّا باذنجان أبيض، وفي كل حال أيّاً كانت الماهية، فلا أحد يكترث للاثنين.

---

(١) مشروع في بنغازي لزراعة البرسيم للأبقار.

نجح، أخيراً، كباذنجانة في الوصول إلى المقبرة الإسلامية، وما إن علم رقودها من بعضهم بعضاً بأنّ بينهم رجلاً غريباً في بدلة أنيقة حتى صاروا يستغلونه بكل شكل.

لقد استعجل كباذنجانة، وما كان عليه الإعلان عن حقيقته حتى يعرفهم.

-لطفاً، يا جورج، اذهب وأقفل باب المقبرة.

-جورج، اذهب واشترِ لنا دخاناً، فأنت ترتدي ملابسَ، أما نحن فعراة.

-اذهب يا جورج، وآتنا بغدائنا وعشائنا، فنحن نشتهي فاكهة، ودجاجاً مشوياً.

تعب جورج أخيراً فصاح بهم، قائلاً:

-تعبت وأريد العودة إلى مقبرتي الأولى. اهترأت بدلتي من المشي تحت الشمس اللاهبة، واتسخ حذائي، وطال شعر لحيتي. ولا أجد كهرباء لكَيّ ملابسي وغسل بدلتي، فالكهرباء مقطوعة على الدوام. كما أنكم تطلبون مني جلب أشياء من أحياء خطرة للغاية تدور فيها الحرب.

-طوّل بالك وبشويش... راهو كان عاملناك معاملة كويسة تحسابنا نسينا إنك مجرد باذنجانة!

وبعد مرور سنوات...

ظهر جورج في ثياب رثة، أشعثَ، أغبر. سُرق حذاؤه، ونهب صاحبُ القبر المجاور له ربطةَ عنقه، وأنكر السرقة على الرغم من أنه يربطها حول رقبته.

وقف جورج على شوك المقبرة الخشن مدمى الساقين، وفكر كفيلسوف كئيب في استحالة الحياة والموت في ليبيا. فلا راحة لحي ولا راحة لميت هنا، ربما السبب في الحالتين هو الناس. سيجدون دائماً ما يكلّفونه إيّاه، وسيمشي دائماً على الجمر من أجلهم ولن يرضوا أبداً.

عندما لا يجد نزلاء المقبرة ما يفعلونه، يكلفونه جلب الأخبار:

-اذهب يا باذنجانة تسقّط لنا الأخبار خارج المقبرة.

وها هم قد فعلوا للتو، وها هو عاد إليهم بالأنباء.

-هناك حديث عن سفينة تركية تدعى «أندروميدا» قُبض عليها في اليونان، محمَّلة بـ٤١٠ أطنان من المتفجرات، قادمة من تركيا إلى ميناء مصراتة، من شأنها فتح ملفات عدة بشأن الحرب في بنغازي إذا حظيت بتحقيق نزيه. وستتسبّب هذه السفينة إذا وصلت بقلق الأموات على قبورهم، فقد يُطردون منها ويوضع فيها الموتى الجدد. اللعنة، لا يوجد استقرار أبداً!

أنهى كلامه، وأدار وجهه شطر أوروبا حاسداً الموتى هناك، فما من ميت يتم إيقاظه ليعود ويموت مرة أخرى. كم مرة سوف تتدخل اليونان وتنقذهم؟

عاد محمد صديق جورج من المحكمة بعد إنهاء معاملة طلاق زوجته:

-ما بك يا جورج، تبدو حزينًا أكثر من القاضي، كأنّ لا شيء يعجبك هنا؟

-اشتقت إلى مكاني الأول وأتمنى العودة. السنوات تمرّ من دون أن يلوح أمل.

- ولِمَ هذا القلق؟ أنت مرحَّب بك بيننا. صحيح أنّ ربطة عنقك سُرقت وحذاءك يمرّ يومياً أمامك في قدمَي رجل آخر من دون أن تستطيع استرداده، والعجوز صاحبة ذاك القبر ادّعت أنّك تحرشت بها، لكنك أفضل حالاً ممن هُجّروا وطُردوا من أوطانهم. انظر مثلاً حال تاورغاء.

- الحقيقة أنني أريد العودة إلى مكاني، ليس لأنه معشب ومشجر ونظيف وخالٍ من البلاستيك، بل لأن المقبرة هناك اكتفت ولم يعد يدخلها أحد، على عكس المقبرة هنا يتوافد إليها الموتى أفواجاً من كل فج عميق. حرب أهلية، حوادث سير، رصاص عشوائي، ماسّ كهربائي، ألغام، إهمال طبي، انهيار مبانٍ مغشوشة، أغذية منتهية الصلاحية... إلخ.

هذا مقلق للمستقبل ويجعلني أفكر في الهجرة إلى أوروبا.

واسى محمد صديقه جورج قليلاً ببعض الجمل المصبّرة، ودعاه إلى الاقتراب من سياج المقبرة للفرجة على العرس الذي يمر بجوارها، حيث تتعالى أصوات أبواق السيارات والأغاني الشعبية، ويلعلع الرصاص في الجو حراً.

هناك أمل. هناك فرح... لنقتنص لنا بعض المتعة والفرح، هيا.

رفع الاثنان نفسيهما على رؤوس الأصابع ليريا، وابتسم جورج أخيراً كما لم يبتسم منذ رحيله عن جبانة آبائه وأجداده، وكان يبدو سعيداً حقّاً أكثر من أصحاب العرس، حتى إنّه ردد الأغنية الشعبية التي يغنونها:

«نار غلاك الله كاتبلي تصهد كيف عجاج القبلي»

وبينما هو على أطراف أصابعه ما بين نار الحب والصهد والقبلي، اخترق سمعه نداء صديقه محمد له:

-اركض يا جورج... اركض يا جورج.

ركض جورج من دون أن يعرف لماذا عليه أن يركض، وفي أي اتجاه يجب عليه أن يركض. ركض فحسب، بالطريقة نفسها التي توزع بها نافورة مرتبكة مياهها، ومن خلفه ركضت بعزم وتوكل رصاصة طائشة من رصاص الفرح العشوائي. استدار محاولاً مواربتها وخداعها لكنها لحقته بخبرة في العَدْو السريع. التفّ حول الشجرة الوحيدة الموجودة في المقبرة فاخترقتها بشجاعة وشقتها نصفين: نصفاً وقع على رأس العجوز المتحرشة، ونصفاً تحوَّل إلى تابوت بفعل الصدمة.

دار حول القبور مرتين أفقيّاً ورأسياً، وقد لاحظ جورج، على الرغم من انشغاله بالنجاة، أنّ الموتى يتمسكون بقبورهم قابضين على أطرافها ولا يظهر منهم سوى رؤوسهم لمشاهدة المطاردة.

داس أصابع أحدهم في انعطاف أفقي رأسي غير متوقَّع، فسمع صراخه ولحقه سبابه مع الرصاصة.

-آي، آي، أصابعي أيها الكافر... أصابعي أيها القذر. يا ابن ...موطة.

كان ما قاله الرجل عنيفاً أكثر من الرصاصة القاتلة، لكن جورج لم يكن لديه الوقت لتصحيح مفاهيم عاشت خاطئة ومات أصحابها على خطئهم.

لو تركته الرصاصة ينطق في حضور المسلمين، لقال لهم إنه كِتابيّ وليس

كافراً، وإنه أسبقهم إلى الله الذي يحتكرونه اليوم لهم. لكنه للأسف كان يجري بلا وقت وبلا موت!

واصلت الرصاصة مطاردته. سمع صوت صديقه محمد يحاول نجدته من بعيد، وإرشاده إلى قبر حُفر في الصباح ليرمي نفسه به:

- خوذ يمينك، بعدين لفّ على يسارك واعزق روحك في أول حفرة جهة مصنع السمينتو.

خدع الـ«جي بي أس» الإنساني الرصاصةَ فمرّت من فوق القبر الجديد بسرعة خاطفة، مضيعة أثر جورج. تنهّد جورج أخيراً في القبر الجديد، وفتح عينيه أقصى ما يستطيع لرؤية سماء الله الجميلة. لقد تسنَّت له رؤيتها صافية بزرقة عجيبة وعصافير. نظر إلى جوانب القبر الجديد وأعجب بتربته النظيفة من التلوث. مسح بيده عليها وكانت باردة نقية لم يسبق لأحد أن تحلّل فيها. وقبل أن يتمكن من شكر الله على هذه النعمة، سمع طنين الرصاصة من جديد، وصوت أحدهم يسبّه ويسبّ دينه وأمه. ارتعب جورج، وحاول الخروج من القبر، لكن الرصاصة المتوارية في الشتيمة حامت فوق الرمس مرتين قبل أن تستقر في جبهته بدقّة تزيد في سعرها لو شاهدها من صمَّمها.

تنهّدت الرصاصة أخيراً ولامته على الهرب وسرعة الجري، وأصيبت الشتيمة بالخرس النهائي حين غرست رأسها أسفل سرّته.

لقد مات جورج مرة ثانية... لكنه هذه المرة مات برصاص عرس، وليس كالمرة الأولى؛ أي أنّه مات سعيداً!

٢

يوم الرُّبوح

لم يكتشف العلم، حتى يومنا هذا، سببَ تسمية الحاجّة مسعودة يومَ الجمعة بيوم «الرّبوح». وإلى يومنا هذا، لم يكتشف أيضاً لماذا تسمي سائر أيام الأسبوع بأسمائها العادية.

مسعودة نفسُها، حين تسأل مسعودةَ عن معنى يوم الرّبوح، تجيبها نفسها المسعودة: «لا أدري، أشعر بأنّه يوم الرّبوح فحسب».

علا صوت من مكبّر الطائرة في أعقاب تلاوة بيانات الرحلة المتجهة من سبها إلى طرابلس: «وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون».

«نسمعوا ونسلّموا»

قالت مسعودة التي اعتبرته فألاً غير طيب، قبل أن يخبرها الحاج عبد الباري بأنّه قرآن مجيد في لوح محفوظ.

استغفرت مسعودة ربّها فوراً واستغرقت وقتاً كي تجلس بردائها في الكرسي، وتضع لها المضيفة حزام الأمان. ثم شدّت على ذراع زوجها الحاج عبد الباري، وسألته:

- قالوا ماشيين لطرابلس؟

- قالوها إيه.

- متيكد؟

- متيكد يا مرا!

- آها... عاد مش تقعد كي مشيتنا هذيك، نبغوا طرابلس لقينا روحنا في طوبرق.

ذكّرت مسعودة الحاج عبد الباري بغلطته التاريخية، تلك التي يتبرّأ منها بالتهرب من الحديث عنها، متمنيًّا لو أنّ مسعودة تبرَأ منها قبل أن تبرَأ من السرطان، ولكن هيهات، فالحادثة التي تعلق بذاكرتها سرعان ما تتحول إلى سرطان. إذًا، ليس ثمة مهربٌ أفضل من اللجوء إلى سبب سفرهما إلى طرابلس.

- فكّري في روحك توا وفي مرضك. صحتك أهم.

قال لها الحاج عبد الباري.

كان الورم السرطاني، الذي تحمله مسعودة، قد صار أحد أفراد العائلة، وتحمّل كل ما نزل على رأسه من تجارب الوصفات الشعبية في مجال طبّ

الأورام الخبيثة، إلا أنّه لم يستطع تحمُّل تصرفات عبد الباري الذي ينتهز وجوده ليستعمله وقتما يريد. ومع أنّ مسعودة أخفته في سرو الها تحت المقعد جيداً، إلا أنّ سرطانها سمع عبد الباري ينطق باسمه ويركب ظهره ليهرب به من إحراجها، فهدّده قائلاً:

- اسكت وبطِّل كلام عليَّ، وإلا انجيك في منطقة حساسة. صبري عليك كمل.

وتجنباً لحصول شجار عائلي على متن الطائرة، شدّت مسعودة ساقها بيدها، قائلة:

- طويلة الطريق من هنا لطرابلس على مريض! يااااه طويلة.

- الله غالب، ما هناك غير الصبر. ما فيش مستشفيات كان في طرابلس وإلا تونس.

- ولو قال طبيب طرابلس امشوا لتونس، مافيش علاج هنا؟

- الله غالب، انبيع الحوش ونرفعك اتعالجي في صفاقس.

تنهّدت مسعودة، وشكّك سرطانها في صِدقية ما يقوله عبد الباري، وانغرست صفاقس في الأرض مسافة مترين ونصف المتر إضافية.

- السرطان يبي فلوس. غير اللي ماعنداش فلوس كيف ايدير؟

ثم انتهزت لحظات صمت عبد الباري وأسرّت إليه:

- اتبيع الحوش والبناويت يقعدوا في الشارع، كيف اتجي هذي يا عبد الباري؟

- البناويت، لهن الله.

- أني كنت نحساب الله معاي حتى أني!

نطق عبد الباري الشهادتين، فالطائرة أخذت في الإقلاع.

- باسم الله مرساها ومجراها. هيا هيا شهدي يا مسعودة، الطياره اسقدت.

تشهدت الطائرة كلها.

تشهد السرطان أيضاً تحت المقعد وقرب مخرج الطوارئ، وفي المقاعد ٢٣- ١٣ - ٩- ١٥ - ٢- ٢٦. بينما تشهدت في الكراسي ١٢ - ٢٢ - ٥- ٤- ٨- ١٧ أمراض أخرى. ثم، والطائرة ترفع رأسها نحو السماء، سأل عبد الباري زوجته: «هل أنت خائفة من ميَلانك إلى الوراء يا مسعودة؟». حرّكت مسعودة رأسها، عاضَّةً على شفتيها بأسنانها، ثم فاجأته بقولها إنّ الموقف ذكّرها بالجَمَل حين يقوم عن الأرض وهي على ظهره، فما أدنى الأرض للأرض، وما أدنى الجَمَل للطائرة!

وضع عبد الباري كفّه على جبينه ضاحكاً، وقد تذكّر أيضاً مراعي الإبل في الحمادة الحمراء، وهو على ارتفاع ٣٠٠٠م فوق سطح البحر. سيتغير اسمه تلقائيّاً في وضعية الطيران من عبد الباري إلى فايز، ليترك عند تلك المسافة شوقه إلى البعير والبهائم، ويهبط إلى طرابلس إنساناً جديداً. أما مسعودة فلن يتغير اسمها، سواءٌ أطارت أم لم تطر، لأنّها امرأة.

قال الحاج فايز:

- حتى هنا جايبه معاك سيرة الجِمال والإبل. انسيهم اشويّه يا مسعودة.

ثمّ سألها عن حمولة الكيس الثقيل الذي رفعه ليضعه في الخزنة فوق مقعد الطائرة، حين كان اسمه عبد الباري. فأجابته بشَفَة مقبوضة وأسنان مرتعشة:

- اشويّة سبيزا لعيلة رُمضان. اعويله وحالته رقيقه وما يخلصوش فيه بالشهور.

وأجهش، لكلمات مسعودة عن حال ابنها، سرطانُها ذو الدرجة الأولى بالبكاء.

انتكاسة لمحاولات فتح الأجواء الليبية دوليّاً:

شهدت حركة المرور إلى حمّام الطائرة ازدحاماً كالذي تشهده طريق القطرون - تراغن لتهريب المهاجرين غير الشرعيين. وبينما كان معظم ركاب الطائرة هناك، أعلن رَجل نحيل ورفيقه في آخر الطائرة اختطافَها!

لم يصدّقهما أحد، ولا حتى الحاجّة هنية التي تنتظر دورها لدخول الحمّام. نهرتهما فخافا منها وتراجعا إلى خلف عربة المرطبات.

- هيا بلا لعب فروخ.

قالت.

- لكنّ الطيارة مخطوفة يا حاجّة.

قال أحدهما بهدوء وعلى استحياء.

حاولت سيدة أخرى النهوض من مقعدها إلى الحمّام،

فقال لها النحيل:

- اقعدي يا حاجّة، الطيارة مخطوفة.

- وكان مخطوفة انشخوا[1] في سراويلنا؟ لنّا نهار محصورين في المطار. عليك حالة!

ولم يفك الزحامَ عن الحمّام إلا التفاتُ ركاب الطائرة إلى ما يحدث خلف عربة المرطبات، وتخلّيهم عن فكرة تجربة التبوُّل في السماء.

أتى فايز مسعودةَ بالأخبار:

- كاينه يا مسعودة... كاينه الطيارة خطفوها وقالوا للسوّاق نزلها في مالطا.

- الدجيجتين... الدجيجتين ثلجهم نزل.

- ليه عليك ترفعي معاك دجاج؟!

- ما خطرليش يبي ايصير هكي، من سبها نلقى روحي في مالطا!

غضب الحاج فايز، وحاول تدبُّر أمر الدجاج في حمّام الطائرة. سأله أحد الخاطفين:

---

(١) نتبول.

- وين ماشي يا حاج؟

- هالدجيجتين نزل ثلجهم، نبي نفرغ الميه في الحمّام.

أجابه.

طرق الباب، فردّ عليه صوت من الداخل:

- الحمّام مشغول! تي باهي.

- سقد روحك[١] يا خينا، الدجاج صارت فيه حالة راهو.

لم تحسن مسعودة اختيار الأكياس، فنظرها ضعيف، ويداها ترتعشان. لم تكن في تركيزها صباحاً. مسكينة! أيامها معدودة. قال لها الطبيب «أمامك ستة أشهر وستموتين إن لم تتعالجي». مسكينة! سنبيع البيت لنعالجها ولن نتركها تموت لنبقى نحن في البيت من دونها.

«سنتصرف نحن يا حاج. هاتِ الكيس»، قالت المضيفة التونسية، بينما كانت المضيفة الليبية تلتقط السيلفي مع الخاطفَين.

فاحت رائحة سجائر في الطائرة التي عمّتها الفوضى. أطفِئوا الدخان. لا يوجد سجائر. كذابون. الرائحة واضحة. مسلَّحان، لا غير. مسلَّحان، سنموت ولن نصل إلى طرابلس. لا، سنصل إلى مالطا، وهي أفضل من طرابلس. حزب الفاتح الجديد يطالب بالإفراج عن سيف الإسلام القذافي. أخبروا وسائل الإعلام العالمية. قبطان الطائرة يغير وِجهتها،

(١) أسرع.

ويوجِّه رسالة عاجلة إلى مطار مالطا. امنحوني مهبطاً. التلفزيونات تتابع الخبر العاجل. ويقطع تلفزيون مالطا عرض مسلسل ليبث الخبر. تنقطع القبلات التي يتبادلها البطلان، فيغضب مواطن مالطي ويلعن ليبيا التي تأتي أخبارها دائماً في الوقت غير المناسب. يركض رُمضان في طرابلس تاركاً البوابة التي يحرسها في النجيلة، ويغادر لا يعرف إلى أين يتجه. والداه على متن الطائرة المخطوفة. لا بدَّ من أن يتصل بأعمامه وأهله في سبها. هم من لديهم قرار تشييد سرادق العزاء. أَديروا التلفزيونات وشاهِدوا. الهواتف كلها تتكلم في لحظة واحدة. اتصل بابن خالته محمد خبزة في بنغازي، وأخبره بما حدث عندما لم يردّ أعمامه في سبها. أحميدة تلقّى الاتصال وهو في القمامة يجمع الخبز المرميّ. ركض إلى بيتهم راميًا الخبز لهول النبأ العظيم.

خطف. مسعودة. مالطا. حزب الفاتح الجديد. أعلام خضرٌ. أخرجوا رؤوسهم من النافذة. طاقم الطائرة يطلب اللجوء السياسي. الخاطفان ليست لديهما مطالب. الركاب بخير ويحاصرون الخاطفَين. الكابتن يخرج إلى سُلّم الطائرة. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويتكلم بهاتفه ويشعل سيجارة. لا يوجد خطر أو تهديد، كما يبدو، والأمور طبيعية جدّا، والكابتن مع الخاطفَين. لا، ليس معهما. أول سيلفي مع الخاطفَين على صفحة المضيفة في تويتر، والسلطات المالطية تصرّح لمراسلة قناة مالطا الرسمية. يبدو أنّ المضيفة معهما. التلفزيونات في العالم: المضيفة متعاونة مع الخاطفَين، وهذه سيلفي لها معهما مبتسمة. أهل المضيفة يقولون إن ابنتنا بخير. فهمنا الرسالة. الخاطفان مطالبهما تحرير سيف الإسلام القذافي المسجون في الزنتان. كتائب الزنتان شاركت في إسقاط القذافي، وتشتهر بجمع الترفاس

وكل ما له قابلية للجمع. كانت تسيطر على مطار طرابلس ثم أخرجتها منه كتائب مصراتة التي أحرقته. كتائب مصراتة تحرق كل شيء. «الله أكبر، المطار يحترق»، والطائرات كذلك. ويبدو أنّ مسعودة الآن كالطائرات، كالمطار، كليبيا.

نعود بكم الآن إلى الطائرة الليبية المخطوفة. بدأت عملية إجلاء الرهائن منها. يبدون في ملابس خفيفة جداً قياساً بطقس مالطا. إنهم يسكنون منطقة حارّة. وهذا وحده كفيل بتبرئتهم من الضلوع في خطف الطائرة.

إلى أين سيأخذونهم؟

إلى هنغار صيانة الطائرات في المطار.

خُطفت طائرة، في زمن القذافي، فخاف المالطيون ووضعوا الركاب في فندق خمس نجوم. الآن، انتهى القذافي، والعالم والمالطيون لم يعودوا يخافون أحدًا. مات الخوف بموته. يدور السفير الليبي بسيارته الفارهة في المطار ويبحث عن مرأب لها، وتمنعه السلطات المالطية من الوقوف. سيارته كبيرة. أكبر من رأسه، ولا يوجد لها مكان. وزير الخارجية الليبي، المنضوي في حكومة الشرق، يصحو من نومه في موسكو ويأمر بتشكيل غرفة عمليات سريعة لمتابعة أمر الطائرة المخطوفة، وفتح تحقيق فوري في الحادثة، وضرورة التنسيق مع السلطات المالطية. فسبها جزء من ليبيا الحبيبة.

وزير الخارجية الليبي، المنضوي في حكومة الغرب، يصحو من نومه في روما، ويأمر بتشكيل غرفة عمليات سريعة لمتابعة أمر الطائرة المخطوفة، وفتح تحقيق فوري في الحادثة، وضرورة التنسيق مع السلطات المالطية.

فسبها جزء من ليبيا الحبيبة. والسلطات المالطية لا تعرف مع أي خارجية ليبية تتعامل، ولأي الحكومتين تتبع سبها الحبيبة؟

وزير المواصلات الليبي يغرد: الخطف هو انتكاسة لمحاولاتنا فتح الأجواء الليبية دولياً!

ما زال هناك راكبان من العدد الكلي للركاب لم يغادرا الطائرة، ويبدو أنّ الخاطفين احتجزاهما للمساومة.

- لا... الدم هذا نازل من درج الشناطي فوق مش من الخاطفين. الحق ينقال.

- هذا دم الدجاج بتاع الحاجّة.

- هيا انزلوا بسرعة.

- عويلتي صحيح مجرمين وخطفونا، لكن الدم هذا مش شورهم الحق.

- هيا مش وقته يا حاجّة.

- بشويش عليها، الحاجّة كراعها توجع فيها.

- المالطي مالطي لا يفهم.

السرطان يئنّ أخيراً.

يتمّ، الآن، إجلاء آخر راكبَين من الطائرة الليبية المخطوفة: مسعودة والحاجّ عبد الباري. يخرج الخاطفان إلى سُلم الطائرة رافعَين أعلاماً خضراء، وهما

من قبائل التبو، وليس لديهما أي مطالب. غادر الجميع سالمين من دون ضرر. الشعب الليبي يتابع عملية الخطف محبوس الأنفاس، وهاشتاغ «الزّبوح .. الربوح... اطلبوا اللجوء السياسي، إياكم أن تعودوا» يتصاعد على التريند في تويتر. وسرطان مسعودة يصعد بأنفاسها إلى درجة القطع نتيجة اعتقاده أنه في عملية جراحية لاستئصاله. ثم ما لبث أن تأكد له آخر النهار أنها ليست العملية الجراحية التي كلّم الطبيب مسعودة عنها، وأنها مجرّد عملية خطف غبيّة كاد يتحول، بسبب صعقتها، إلى سرطان من الدرجة الرابعة، يأخذ روح مسعودة منها إلى عوالم بعيدة فتعود الطائرة من دونها ومن دون الدّجاجتين والخاطفَين.

لقد أتى لطف الله في اللحظة المناسبة وعاد السرطان إلى أرض الوطن سالماً!

٣

حكاية المواطن الذي طرح سؤالاً وجوديّاً

كان مولده في الجبل الأخضر، في شتاء قارس كسَت ثلوجه قباب المساجد وأسطح البيوت، وزادت الطين المبتلّ ابتلالاً.

ما إن تمكّن من تحريك قدميه البيضاوَين، حتى توحَّلتا بطين الوطن الغالي، كأنّما داس جردل حنّاء تركته نساء القرية عند سماعهنّ صراخاً رهيباً. كانت أمه تلده في اللحظة التي تسابق فيها أهل القرية نحو بيت خير الله، مصدر الصراخ القوي المتتالي.

ميلادٌ حظِي بالصراخ في زاوية الحظيرة المظلمة، حاولت عواطف أمّه الجياشة تدثيره من برد الوطن بالجلوس عليه، مثلما حاولت النساء تهدئة زوجة خير الله بإغلاق فمها، التي اتضح، فيما بعد، أن سبب صراخها هو مصرع أحد أقربائها بانفجار سيارة مفخّخة في بنغازي.

تصدّع في ليلته الأولى من غرابة الأصوات التي سمعها. حاولت أمّه إخباره

بأن الأمر طبيعيّ جدّاً وفقاً لتقاليد وداع الأقرباء، وأنه إذا ما قُدِّر له العمر الطويل في هذه الربوع الجميلة فسوف يشهد بكاء النساء على أموات لا يعرفنهم. فالنساء في هذا الركن من الوطن فاقدات، زار الموت بيوتهن وخطف من كلٍّ منهنَّ ولدًا أو ولدين، وأباً أو زوجاً أو قريباً.

النساء هنا باكيات حتى حين يغنّين.

-وما هدف الحرب، يا أمي؟

-أن تصنع الحزن، وتجعل في القلب ثقباً يدخل منه الهواء.

هزّ سؤاله الضلعَين الأماميّين للحظيرة، وهزَّت الإجابة الضلعين الخلفيَّين.

رآى والدته تقضم الأشجار المتيبّسة لتدرّ له الحليب، في يومه الأول الذي اصطحبته فيه إلى البرية. جُرح فكّها وأصابتها بعض الخدوش في وجهها، ومع ذلك استماتت في دَرّ الحليب له. طلب منها أن تفطمه عندما رأى صعوبة ما تعانيه من أجل إرضاعه هو وبالقاسم بن خير الله. وبينما كانت تمضغ بعض العيدان التي استطاعت نهشها من الشجرة، علَّمته درساً في التفاؤل؛ إذ من حسن حظه أنه وُلِد جدياً لا طفلاً، وإلا لكان لديه الآن أربعون مشكلة مع حليب الأطفال، حاله حال أطفال ليبيا الذين يستورد لهم الحليب تاجر وحيد يُدعى «بي الحليب»، هو من يدير طفولتهم وفقاً لنظريته الاقتصادية القائمة على الحَلب. فإمّا أن يشتروا أشياءَ أخرى مع الحليب، وإمّا فلا حليب!

-أيّهما أفضل لك: أن أعاني بسبب الطبيعة القاسية، أم أن يرتهن حليبَك تاجرٌ أفّاق؟

- يبدو لي من البداية أنّ الحياة لن تكون أمراً سهلاً هنا يا أمي!

بدا عليه القلق الوجودي باكراً.

أخبرته أيضاً، وهي تمضغ، بأن صاحب الحظيرة رجل عظيم الفهم في الاقتصاد الحيواني، إذ استبدل بشراء الأعلاف شراءَ الخبز الساخن من فرن القرية، فأجبر الخباز على خَبز كمية كبيرة من العجين من أجلهم، لا من أجل المواطنين. وهكذا باتوا يأكلون الخبز طازجاً ساخنًا قبل أيّ مواطن بشريّ. أخبرته كذلك بأنه سيكون أفضل حالاً لو عاش حياته في القرى، بدلاً من أن يذهب إلى المدن، لأنه لن يأكل فيها الخبز إلا يابساً أو بائتاً أو من القمامة، حتى إنه سيُجبَر أحياناً على أكل الجرائد والكتب المدرسية. سيضطر في المدن إلى أن يصبح مثقفاً.

كانت عيناه سوداوَين، وثمّة خصلة صوف سوداء (ستشيب لاحقاً) تغطي رأسه، مثل قبَّعة شتوية. ويبدو أنه كان في عيني أمّه غزالاً، لا مجرَّد خروف ليبيّ، فقد نادته «يا غزالي»، واستطاب له هذا النداء، ثم طالب بأن تناديه به دائماً.

وحين مرّ عليه الحَوْل، صار أهل القرية يطلقون عليه «جدي حليب» عند مرورهم به، وشعر بأنّ نظرات إعجابهم مريبة وتحمل في طياتها المصائب.

عند هذه النقطة تعلّم الفلسفة.

أمّا كيف تعلَّم اللغة، فقد صحبته الوالدة إلى الوادي الفارغ ليثغو فيه ثغاءها؛ ثغاء آبائه وأجداده. درّبته كيلا يتعلّم النّبرة التي تجعله تيساً أو ثوراً، وحدّثته

عن صور أقربائه المرسومة على جبال تبستي تاسيلي ليستمد منها حاجته إلى الفخر عند مقارعة الكباش، واستدراج النّعاج، وتقوية حسّه بالتّميز العرقي.

إنّهم يملكون صورًا عائلية منحوتة على الصخور قبل أن يكتشف العالم التصوير الفوتوغرافي، وهذا إثبات لهويتهم الحيوانية التي لم تتغير على مرّ العصور.

ثم لا بدَّ له من دورة تدريبية على فنون العَدْوِ، بعد أن تعلّم الفلسفة واللغة والتاريخ. فليبيا لم تُخلَق واسعة وكبيرة، اعتباطاً. وتونس لم تُخلَق صغيرة وضيقة، عبثاً. ففي اتساعها ذاك، درّبته على الإفلات المشرّف، فهرب من محاولة ذبحه في مأتم شهيدين من طبرق قضيا في حرب بنغازي على الإرهاب. وهنا استعمل الفلسفة، لا الشّرف، لتبرير الهرب؛ فقال إنّه يُجِلّ تضحيات الشهيدين للأرض نفسها التي يعيشون كلّهم عليها، لكنّه غير مقتنع بأنّه كلما فقد إنسان حياته هنا توجَّبَ أن تفقد بضعة خراف رؤوسها.

إنّه يحبّ الأرض ويأمل في أن يعمّها السلام ويأكل من عشب ربيعها المقبل، لكنه يريد أن يموت لسبب آخر، غير الذبح.

-لكن معشر الأغنام يموت ذبحاً، فلماذا تتمرّد أنت؟

تساءلت الزريبة.

-أنا لن أعيش عيشَ القطيع. أريد أن أعيش بطريقة مختلفة، وأموت بطريقة أكثر سكينة من السكاكين. كأنْ أسقط من ارتفاع، أو تدهسني سيارة، أو يصيبني مرض أو سكتة قلبية، أو أقضي برصاصة طائشة. لا أريد أن أُذبح كآبائي وأجدادي.

هكذا تغيرت نبرة صوته، وفتح باب الحظيرة بقرنه المراهق، وسار على غير هدى تحت ضوء النجوم. سار إلى أن استوقفه صراخ بات يعرفه كلما أضاءت النجوم دربه المعتم.

قال في نفسه: يا ستّار، يبدو أنّ أحداً قد مات!

فقد كان صراخًا مختلطًا ببكاء يفصد القلب، وليس صراخاً سببه خروج شبح وإخافته أحدهم في الظلام. اقترب من التلال المؤدية إلى مصدر الصراخ، ووقف ينتظر تأكيد ظنونه حتى مرّ قرويون يتوافدون مسرعين حفاةً إلى بيت خير الله. لقد قُتل ابنه بلقاسم بلغم أرضي في الصابري!

يا للهول! لقد قُتل شقيقه بلقاسم. واحَرَّ قلبي عليك يا بلقاسم، وا حرّاه!وابيضّت عيناه حزناً على بلقاسم الصغير.

بعد انقضاء أيام الحداد، وكان لا يزال مكلوماً على بلقاسم، ذهب برفقة والدته مع القطيع إلى المراعي الوفيرة في ضواحي الرجمة، وهي أكثر دفئاً وأوفر كلأً. ووقع الاختيار عليه لإقامة وليمة لشيوخ قبائل اجتمعوا لتقسيم ليبيا؛ أي: لتقسيم وطنه. رفض المشاركة في المؤامرة، وأسرّ إلى أمه بنيّة الهرب. فبكت سرّاً وغطّت هربه بالثغاء. ثغت ليلتين قبل الاجتماع حتى لفتت انتباههم إليها، فاقتادوها إلى الوليمة بدلاً منه.

وبات رأسها رهينة الذباب عند الخيمة.

اختفى، حاملاً حزنه في قلبه العشبيّ النقي بعد أن سقت دموعه مراعيَ الرَّجمة. لم تكن تلك نهاية محاولات الهرب من الواقع، فقد عاود الهرب

من محفل اقتيد فيه ضمن «جهاز عرس»، قال فيه الزوج المحبّ لحبيبته إنه سيفعل المستحيل ليُسعدها.

نظر الثّني[1] إلى الزوج نظرات لوم وعتاب:

– تدفع برأسي هدية محبتك لها! إذا كنت أنت تحبها فما دخلي أنا في الموضوع؟ لماذا تنتظر عودتي من البرية لتعرب لها عن حبك؟ هل أنت حيوان؟

حاول المأذون الشرعي وأهالي البلدة إقناعه بأن اللقاء العاطفي بين فرج ونوّارة يتطلَّب وليمة العرس، وأن حضوره ضروريّ لتكتمل به سعادة الجميع، لكنه رفض بإصرار، مدَّعياً الصرَع، فشُتم ونُعت بالحيوان الشيطاني الذي لا يساعد على إقامة الحلال. خاف حينها من سكاكينهم، وولّى الهرب مجددًا من دون أن يعرف الاتجاه الذي يمضي إليه، هرباً من وطنه الحبيب.

بلغ مقر الحكومة الموقَّتة في البيضاء، معتقداً أنه وصل إلى إجدابيا. التاريخ السيّئ نفسه فقط يعيد نفسه، إذ حدث له ما حدث لكولومبس عندما وصل قارة أميركا، معتقداً أنها جزر الهند الغربية، وإن كان ثمة فارق بين الهند وأميركا، فما من فارق بين البيضاء وإجدابيا والهند.

في البيضاء، رعى كفحل حقيقي مع قطيع من الأغنام قرب مقر إقامة الحكومة الموقَّتة. كان شبيهه في الحكومة يمضغ الكلمات الوطنية من أجل ليبيا، بينما هو يُفتش في قمامة الحكومة عمّا يسدُّ به جوعه، ويطرح سؤالاً وجودياً مهمّاً على نفسه: مَن منّا قريب الآخر؟

---

(١) خروف لم يكمل العامين من عمره.

ثم، وهو يشمّ التربة الطينية الرطبة، وجد نفسه قبالة قطيع من الماعز، يصعد الأشجار وينطّ على الصخور في لهو وحبور. أعجبته حياة الماعز، مريحة للغاية، وليس فيها ما في حياة الخراف من شقاء. فالماعز تمضي يومها بين الطعام والتسلق والثغاء والمسافدة، كما أنّ مشهدها، قياساً بمشهد الخراف التي تفضِّل الأراضي المسطَّحة وتتجنَّب المرتفعات، يبعث على الفخر والإعجاب بطموحات معشر الماعز.

راقه أنه الوحيد وسط عالم الماعز، بصوف وافر وقرنين قويَّين، فوضع قوائمه على الصخرة العالية وجرّب أن يتصرَّف كتيس. ثغا وقفز من صخرة إلى صخرة، لا كما علَّمته أمه، رحمها الله، بل كما دفعته الحياة إلى أن يفعل. يا له من عالم، يفتح أبوابَه التسلُّق!

لم يكن يعلم بأنّ في الحياة ملذّات مترتبة بعضها على بعض، ولبلوغ واحدة لا بدّ من تجربة أخرى. وما لم يغامر ويجرب التسلق ويتخلَّ عن ماضيه مع «السعي»، فلن يحصل عليها. إنه عالم آخر ما كان ليهبط إليه لو لم يصعد هو إليه.

كانت إطلالة فندق البيضاء جميلة مميِّزة ذلك الربيع الجميل الذي تقافز فيه مع الماعز أمام التلال القريبة من الفندق. تجددت فيه روحه ولاحت له رؤية مختلفة ما كان ليراها لو أنه ظلّ يمشي مطأطئًا رأسه في اتجاه الأرض. فها هو قريبه أصبح مقرِّراً شأنَ البلد بينما يُطأطئ هو رأسه ويقتنع بما تقدمه إليه القمامة من طعام. لماذا قريبه المقرِّرَ، وليس هو؟

منذ تلك الرؤية، توكل على الله، وقرر أن يصبح تيساً.

٤

خطاب التحرير

لم يترك العكروت يوماً عالمياً يمرّ من دون مشاركة في إحيائه والتضامن مع موضوعه، حتى اشتهر بصفته «العكروت الدولي»، اعترافًا بمشاركاته في الأيام العالمية لمنع التدخين، ومرض السكري، ويوم الأرض، ويوم السلام، ومناهضة التمييز العنصري، وأيام أخرى كيوم المعلم على الرغم من أنّه ضرب معلماً مصريّاً حين كان طالباً في الثانوية، فكسر ترقوّته وساءت بسببه العلاقات الدبلوماسية بين ليبيا ومصر.

ولم ينسَ كذلك يوم التوحّد على الرغم من أنه حين يتشاجر مع أحدهم، يصفه بالمتوحد أو المنغولي؛ ويتذكّر يوم سرطان الرحم على الرغم من أنه ذَكَر؛ ويوم منع الانتحار على الرغم من أنّ خطيبته الأولى أشعلت في نفسها النيران، حين رفض فسخ الخطوبة.

ولا ينسى أيضاً اليوم العالمي لحماية البيئة بالرغم من أنه يرمي قمامته في

الأماكن العامة، طوال أيام السنة. ويتذكر اليوم العالمي للرياضيات على الرغم من رسوبه في القسمة المطوَّلة في المرحلة الابتدائية؛ واليومَ العالمي لزيادة الوعي بشأن الألغام الأرضية على الرغم أنه من مصراتة.

يُحكى أنّ العكروت الدولي أضحى قدوة ومَثَلاً، منذ أن شوهد في يوم الكفيف العالمي، يعصب عينيه يوماً كاملاً ويسيّر شؤونه كافة بشكل اعتيادي باستثناء بعض حوادث طفيفة أسفرت عن ضربه نصف سكان المدينة بالعصا البيضاء، بحثاً عن الجادة الصحيحة، وأخذه بعض الأشياء من السوبرماركت من دون تسديد ثمنها، ظناً منه أن ليس على الكفيف حرَجٌ. كما أدى عُبوره الشوارع من دون توقف إلى فوضى مرورية، وتسبب دخوله غرفة نوم جارهم بطلاق جارتهم. أما في النصف الثاني من يوم الكفيف العالمي، فقد ذهب العكروت إلى امتحان علم النفس الفارقي، مغمض العينين، وطلب من الجامعة معاملته كطالب كفيف وتخصيص شخص يقرأ له الأسئلة ويدوّن له الأجوبة، فتعاطفت معه الفتاة التي تكتب له وأجابت بنفسها عن أسئلة الامتحان؛ فهي الأخرى كانت تتضامن مع الأكِفّاء في يومهم.

تدرّج العكروت في تضامنه من الأسهل إلى الأصعب حتى وصل إلى يوم الحَوَل العالمي، وخاض التجربة ليعيش يوماً كاملاً كشخص أحوَل.

جلس يشاهد التلفزيون مع عائلته، مقطّباً ليحافظ على احولال عينيه، وأوصت زوجته أولادها بعدم إزعاجه، قائلةً:

- ردّ بالكم ادّيروا هرجة بوكم راه حَوَل اليوم، ومروّح تعبان، وراسه مكردم، وجسمه معبي كدمات.

كان من الطبيعي أن يمدّ يده لفرّامة اللّحم بدلاً من أن يمدّها إلى كأس الماء في المطبخ؛ وأن يقف عند الجزّار يطلب قطعة هبر من مؤخرة المرأة الواقفة أمامه بدلاً من لحم العجل الممدَّد في الثلاجة؛ وأن يمدّ يده إلى الموقد بدلاً من الخبز؛ وأن يصفِّق ويهتف فرحاً كلما سجلت روسيا في شباك المنتخب السعودي؛ وأن يشاهد سباق جري على قناة التلفزيون، بينما كان يستمع إلى نشرة الأخبار؛ وأن تخرج من أمامه في ميناء مصراتة قوارب حربية وجرافات المسلحين وفلول الإرهابيين، قاصدة بنغازي، فيحيّيها ويرجو لها فتحاً مبيناً ونصراً عظيماً مؤزّراً.

كان من الطبيعي، بالنسبة إلى شخص أحوَل إرادياً، أن يقف على شواطئ مصراتة، فيرى ما يحدث في بنغازي ولا يشاهد ما يجري في تاورغاء على بعد كيلومترات!

بذلك كسر العكروت القاعدة النافية لإمكانية أن يحوّل الإنسان المدة التي يشاؤها، عن الأشياء التي يشاؤها، متى شاءها.

اختار العكروت الدولي موقفه السريع من الثورة في ليبيا حين هبّت، كأنّما كان على عِلم بها. فدخل على زوجته وبنيه يعدو، وطلب إليهم المساعدة في لملمة حقيبة السفر.

قالت زوجته:

-غير بالشوية واحكيلنا وين ماشي وشني صاير؟

صاح كمن أكل طبقاً من الفلفل الأحمر الهندي في مباراة التحدي العالمي لأكل الفلفل:

-بونغازي بونغازي يا مرا!

قال ذلك وهو يحرِّك كفه دليلاً على حرارة ما يحدث في بنغازي.

سألته زوجته بحرارة:

-خيرهم شني جاهم عرب بونغازي؟

-قالوا صارت تورة (لا ينطقها العكروت بالثاء)، والقذافي نازل فيهم سحن في الميدان. عطوني غدريتي وكبابيطي يا أولاد خل نلحق ع الرجال. الموت ولا العار.

وأوصى زوجته:

-ما تبكوش عليَّ، ووصِّي أهلك يدعو لي بالشهادة؛ والبهلول ولد عمك يسامحني في دَين الدكان.

حبست زوجة العكروت دموعها وهي تودعه، وبكى الجيران وعانقوه عناق وداع.

كانوا متأثرين جدّاً لرحيل المثقف المثال في حياتهم، فأين سوف يجدون عكروتاً مثله؟ أين سيجد العالم رجلاً كهذا الرجل. إن فقدانه خسارة كونية.

نسي الجيران، في زخم تذكر أفضال العكروت، أن يسألوه عن الطريقة التي سيصل بها إلى بنغازي ليقاتل مع ثوّارها. وهو أيضاً تجنّب إخبارهم بشيء حقيقيّ واحد مراعاة لمشاعرهم تجاهه.

غابت السيارة التي تقلّه سريعاً، وآخر ما لُحظ منها طرفُ جلّابيته يرفرف في الريح، وقد أوصد الباب عليه في استعجال. فبدا كيَدٍ تتحرَّك من بعيد ملوِّحة بسلام الوداع.

احتدم بعد أشهر القتالُ بين القذافي وأهالي الشرق في جبهة البريقة، وظن أولاد العكروت وزوجته، وهم يتابعون أخبار الجبهة، أنّ العكروت هناك، حيث الموت، وأنّه قد نال الشهادة خلال إحدى المعارك، فهو لم يتصل بهم مذ لوّحت لهم جلابيَّته مودِّعةً.

صار الجيران يتأهّبون لإعلانه شهيداً، ويتدربون على كيفية استثمار شهادته. وبدأت زوجته تبحث عن ثياب سود وجوارب داكنة للخروج. وجهز سادس جار قصيدة رثاء موزونة في حقه. وفكّر بعض مثقفي المدينة في تسمية جائزة باسمه بمجرد أن تضع الحرب أوزارها. وتخاصم اثنان منهم بشأن تسميتها: جائزة العكرتة الثقافية، أم جائزة الثقافة العكروتية!

مضت الأيام، وإذ بالعَكروت يظهر ذات مرة في مداخلة تلفزيونية، متكلماً عن ضرورة تسليح الثورة ودكّ أوكار الظلم وإطاحة الديكتاتورية القذرة في ليبيا. كان يحرّض على القتال، وعلى ضرورة ألّا تهدأ جبهات القتال لتحرير ليبيا. فليبيا أرض الرجال، وللرجال.

كان في حُلَّة أخرى غير التي خرج بها، ولم يبدُ أنه قاتل أو حضر قتالاً إلا من نوع آخر ينعكس على محيّاه ولباسه. كان العكروت المثقف قد طلب اللجوء السياسي في ألمانيا مُذ قامت الثورة، وقد حصل عليه؛ لأنّ الألمان صدّقوا

ادعاءاته. وهو يعيش هناك منذ سبعة أعوام كمثقف لاجئ، ويُعَدّ حالياً في ليبيا من النخبة المضحِّية والمؤثرة.

صحيح أنّ خطاب تحرير ليبيا الذي شدّد على أحقية زواج الرجل بأربع نساء قد فاته، إلا أنّ العكروت اليوم أب لطفل نصفه روماني، ولطفلة نصفها سوري، ويستطيع أن يعود إلى ليبيا في أي وقت، بحسب خطاب التحرير، ليواصل التكاثر، ويشارك في تسميد التراب الوطني.

أربع نساء لكل عكروت... إلّا هذا العكروت.

٥

تخصيب ذرّي

يكذب عبد السلام، في الأيام العادية، أكثر من كذبتين كبيرتين في اليوم، وعدداً من الكذبات الصغيرة التي لا تُستشعر بالحواسّ المجرَّدة. لكن أكاذيبه لا تمرُّ على الأذكياء والنبهاء، فهم أدقُّ من يدركها ويحبطها ويصفها، ويقولون إنّها أعلى من المعدل الذي تبيض به الدجاجة يوميّاً. فإن كانت الدجاجة تحتاج إلى ٢٦ ساعة لتضع بيضة واحدة، ثم تستريح مدة ٣٠ دقيقة، وتخلد إلى الراحة يوماً بعض الفترات قبل معاودة الإنتاج، فإن مولّدات عبد السلام لا تعترف بنظام الساعات الـ ٢٦، ولا بالاستراحة أيضاً. إنّه يقاوم حتى العُطَل الرسمية كي لا يمرض ويخدع النظام. لكن حدث أن مرض ذات مرة بإنفلونزا ألزمته الفراش، ولم يجد أحداً يمارس عليه الكذب، فاحتبست لديه الأكاذيب كما يُحتبَس البول، وسببت له تسمّماً كاد يقضي عليه.

لم يكن ثمة أحد في البيت سواه هو ووالدته والتلفاز. وكانت أمُّه تعي مليّاً

أنّ ابنها إذا ما حدّثَ كذَّب، وهذا ما يُعطل فاعلية الكذبة على أن تعيش ككذبة بعد إلقائها، فالكذبة التي لا تسري لن تصبح فاعلة وستنتهي ككلمة صادقة. أما التلفاز فعبارة عن عبد السلام من القَطع العظيم جداً، ولن يمثّل له عبد السلام الصغير أكثر من بيضة دجاجة معتادة أن تبيض.

كان انعكاس ذلك الوضع سيئاً على صحته، وعلى «الكومودينو» التي امتلأت بالأدوية وطاسات مستخلص الحلبة والليمون. وجاء الطبيب العجوز، ففتح نوافذ غرفة الكذب العريقة، وحث مريضه النائم على النهوض، واستغلال النهار المشرق للكذب. عاين ضغطه قائلاً:

- معدَّل الكذب لديك منخفض جدّاً، ستتعرض لانتكاسة خطرة ما لم تكذب!

- غريب، على الرغم من أني أكذب بشكل اعتيادي!

وفتح الدرج قربه ليُري الطبيب الأكاذيبَ المكدَّسة:

- ها، انظرْ إلى الدُّرج كيف امتلأ والخزانة وأسفل السرير وشقّ السقف الذي يعيش فيه البوبريص «الوزغ» كذلك.

- أَخرجْ لسانك وتنفَّسْ هكذا... أَدخله... أها، حلقك ملتهب من قلة الكذب. اسمع، لن أجاملك، إن لم تكذب في الأقل كذبتين كبيرتين في اليوم، فسوف ينغلق حلقك وتموت من مرض بلع اللسان. ساعتئذٍ، لن تفيدك شهادة الدُّرج، ولا شهادة الخزانة، ولا السرير، ولا البوبريص.

سأل خائفاً:

-هل وضعي خطر يا دكتور؟

-أكثر مما تتخيّل، بل أخطر من حال جرحى مستشفى ١٢٠٠ سرير في بنغازي، الذين تعفّنت جروحهم وخرج منها الدود.

خاف عبد السلام لأنه سبق أن شاهد فيديو عن خروج الدود من الجروح المتعفِّنة. وأضاف العجوز، وهو يتجرع بقية طاسة الليمون والحلبة على الكومودينو:

-يجب أن تبحث عن أكاذيب تروِّج لها، وإلا فإن دورتك الدموية ستتوقف وسيخرج منك الدود وأنت حيّ، وستنخفض مناعتك وتصبح نهباً للانقراض. أنت تعلم بأنك رجل نادر ومهدَّد بالانقراض ما لم تكذب.

اكذبوا تصحّوا.

بكى عبد السلام في الفراش حتى امتزجت دموعه بالمخاط النازل من أنفه، وامتزج المخاط بشوربا اللفت، وامتزج اللفت بالكبد والدم والمخ، والنظرة إلى المستقبل كذلك. تغيَّر مذاق الأشياء في حلقه ذلك المساء، فحاولت والدته مواساته بعد انصراف الطبيب:

-اكذبْ أيَّ كذبة، الله يحفظك يا وليدي، علشان صحتك.

-ما عنديش نية في شيء، المرضة هذي كرَّهتني في كل حاجة.

ربَّتت والدته على كتفيه، فاستجابت لتربيتتها الخطوطُ البيض في بيجامته:

-غير حاول سلم وليدي، حاول أنت راجل، والراجل ما ايعيبه شيء.

انتفضت خطوط البيجامة السود، وتحرَّكت متعرِّجة دلالةً عدم الرضا.

- معادش خلولي شيء نكذبه.

- حاول سلم وليدي، دور أي حاجة، أهي المدرسة اللي حدانا مليانة نساء نازحات بلا رجال، موضوع جاهز للكذب، اكذب عليهن. اكذب تِصِحّ. مافيش أسهل من الكذب على شرف النساء. بسرعة ما تنتشر الكذبة ويصدقوها الناس. الناس اتحب لحم النساء.

- يا أمي، قديش من استخدام الأعضاء البشرية، معادش حد حيصدقني.

نهضت العجوز عن حافة السرير، فاقدةً الأمل، والتقطت معها ثلاثاً وثلاثين جرثومة من جراثيم الكذب، تاركةً عبد السلام يعالج آلامه بمليوني جرثومة فقط.

بعد قليل، سمعت صوت تحطم زجاج وصراخ، فعادت مفزوعة إلى الغرفة:

- كنك شنو فيه، اسملّه علي اوليدي؟! باسم الله... باسم الله.

وجدت عبد السلام مكوَّماً داخل فراشه بعد أن حطَّم شاشة التلفاز في عيد الثورة. نظرت إلى هنا وهناك لتعرف سبب الهستيريا التي أصابته، ففهمت من مشهد الشاشة المحطمة والمذيع الذي ما زال يتكلم ما أثار غضب ابنها. لم يتمالك عبد السلام نفسه من البكاء في حضن والدته:

- لم يتركوا لي شيئاً! لم يتركوا لي شيئاً! كل شيء سرقوه مني. تصوَّري، يا أمي، أنّ إسماعيل الصلابي قسم بصدره العاري دبابةً نصفين!

وإبراهيم بن غشير رفض عرضاً من القذافي بترليون دينار ليبي ليوقفوا الثورة في مصراتة!

وسهام سرقيوه لديها إحصائية عن ثمانية آلاف امرأة مغتصَبة في الثورة!

وساق خميس القذافي عُثر عليها في بني وليد تقاتل وحدها قبل أن تظهر في إحدى المزارع تطير مثل غيمة ماطرة[١].

لا أعرف، يا أمي. أشعر بأني مشوَّش، وأنهم يغتالونني بالقطعة. لم يترك لي الأوباش شيئًا، لم يتركوا لي شيئًا. ابنك انتهى.

ضرب عبد السلام برأسه الخزانة، فسحبته والدته حتى لا يكسر الذكرى العاشرة الباقية من زواجها. وحين توجَّه إلى الحائط سبقته إليه، وبسطت ذراعيها عليه كي تمنعه من إخراج البوبريص وقبيلته المندسة فيه. بحث عبد السلام عن أي شيء يضربه برأسه، لكن والدته كانت تتدخَّل كل مرة وتمنعه، فخرّ على الأرض، ولم يكن حينذاك بدٌّ من فعلها. حاولت شدّه من قدميه المتحركتين مستجدية:

- لا، لا... أرجوك لا تفعلها. أرجوك لا تكسر جوهرتك الثمينة بنفسك.

مات عبد السلام وهو في قيد الحياة من قلة الكذب، بعد مرور ألف وتسع وتسعين سنة على الثورة التي سخطت ليبيا من بلد فاشل إلى بلد مكرّس للفشل؛ مات بتحوُّله إلى إنسان صالح، يذكر الأشياء بمسمياتها من دون زيادة أو نقصان، وينقل الوقائع بأحداثها الحقيقية، ولا يتعرَّض لأعراض النساء بالقذف.

---

(١) أشهر الأكاذيب التي راجت في ثورة فبراير ٢٠١١ .

كان ما حدث له فظيعاً، أربك نظامه الجيني وقضى على منظومة صنع الأكاذيب لديه، لذلك امتلأت المدينة بالأخبار الحقيقية، واشتكى الناس منها كما يشتكون من القمامة حين تملأ شوارعهم وتسدّ مداخلها، وتُزكم رائحتها أنوفَهم.

غدا كل شيء بلا طعم، وصارت المدينة في حاجة ماسّة إلى خدمات عبد السلام، فقررت البلدية وضعه في الحَجْر الصحي، ثم أدخلته مستشفى الأمراض العقلية، فخضع هناك للصدمات الكهربائية ولجلسات إخراج الجانّ على أيدي رجال الدين المهرة.

جُرّب معه كل شيء من دون جدوى. وقررت الدولة، في النهاية، إرساله للعلاج في الخارج، خوفاً من أن ينتشر مرضه الخطير بين الناس. والآن، تدرس منظمة الصحة العالمية إعلانه الرجل الأخير الذي لا يستطيع الكذب على كوكب الأرض، حاله حال الكائنات التي تهددها ندرتها بالانقراض.

ربَّتت الباندا على كتفَي عبد السلام قائلة:

لا تقلق، سيُزوِّجونك.

٦

دورة حياة القطط

قلت في نفسي، عندما رأيته على سرير التوليد:

-عقيلهفيتش أو السويحليوس زعمه؟

كان الألم يعتصرني، ورأس الجنين يتدلّى، وربما اختلط عليَّ الشبَه بينهما، لكنني شاهدت الطبيب الهندي يقذفه بشبشبه الطبي، وهو يدفع بي النقالة الطبية على نحو قلَّل من احتمال وقوعي في الخطأ.

قفز شبيه عقيلهفيتش أو السويحليوس حين مسَّه الشبشب بضرر، وهرب من النافذة مخترقاً تجمع القطط هناك.

بدا لي الوضع أقرب ما يكون إلى فوران عبوة مشروب غازيّ كبيرة في الغرفة الضيقة؛ فكلٌّ ما فيها أصابه ارتجاج العبوة: القطط؛ أنا؛ الممرِّضة؛ الطبيب؛ السرير؛ الشاش؛ المقصّ ولوحة خشبية صغيرة مائلة عُلِّقت

على الجدار، خُطَّت عليها آيةٌ قرآنية، وأخرى كُتِب فيها ترخيصُ مزاولة الطبيب الهندي للطب في ولاية البنجاب، مع صورته قبل أن يحلق شاربه.

أظن أنّ الطبيب الهندي استعمل شيئاً من الشتائم بلغة طبية، ثم عاد إلى الحديث بلهجة ليبية هندية:

- ماما، إنت فيه بَيبي قريب ينزل. لازم شوية دفع جديد. مو دفع رباعي ماما. دفع... دفع.

لم أرَ، في المساء، شبيهَ عقيلهفيتش أو السويحليوس، مع أني شاهدت ربع سكان ليبيا تقريباً، متوزِّعين بين موتى ومرضى يحملون معهم الأدوية ومتطلبات حالاتهم من الصيدليات الخارجية. لقد كان للمستشفى موازنة، لكن الأدوية المخصَّصة له ذهبت، وما زالت تذهب بقدرة قادر إلى المرافق الطبية الخارجية.

سُرقت أجهزة المستشفى كلّها، ما عدا ثلاجة الموتى، فقد بقيت كما هي، وكان يرقد فيها إضافة إلى العامة، أقدم نزيل في المستشفى، وهو رجل سوداني صدمته سيارة يوم عيد استقلال السودان، ورفضت سفارته نقله لعدم وجود وثائق لديه (أدّى تعقُّد ظروف الهجرة إلى تعقّد الظروف بين الدنيا والآخرة).

كانت القطط تملأ نافذة غرفة التوليد ذات الزجاج المهشَّم، فطردها الطبيب الهندي المقيم بالمستشفى، مثلها، وتابع عمله في استقبال رئيس ليبيا المقبل. كانت القطط سمينة جدّاً، ومفترسة، وتعرف جيداً شخصية الطبيب لِقِدَم

العلاقة بينهما. وكانت تكرهه وهو يسبُّها، كما يشتِمُها الليبيون فينسبونها إلى نَسل الكلاب:

- قطوسة بنت كلب. قطوسة بنت حرام.

خشيتُ من حجم القطط وشكلها. أشعرني وجودها بالخوف على الطفل الوليد، ولاسيما أنّ قصص التهام القطط المواليدَ الجددَ في الحضانات ملأت المدينة وامتدت إلى القرى المجاورة التي ليست فيها مستوصفات، ويرتاد أهاليها المستشفى نفسه معنا.

توسَّلت إلى الممرِّضة المساعِدة أن تغمر رئيس ليبيا المستقبلي، وتهرب به حين يأتي إلى مكان آمن في المستشفى، بينما سنتولى أنا والطبيب أمر بنات الكلب. كان الطبيب نبيلاً، وطلب مني عدم إرهاق نفسي، ووعدني بأنه سيتكفَّل بنفسه بمنحها فضلات الولادة مباشرة كي لا تتهجم عليَّ ويلهيها عن مطاردة الممرضة والطفل كذلك؛ أي، بلغة عسكرية، سيعمد إلى فتح جبهة مشتّتة.

ثمة قطة مرقَّطة بنية اللون أظن أنها حامل، هي التي فازت بالكيس الأمينوسي الذي حوى رئيس ليبيا تسعة أشهر. أما بقية الفضلات فقد تناهشتها القطط الأضعف، حتى تشرذم حبل الرئيس السّري بينها.

تحوَّل المستشفى، في الليل، إلى مقبرة معتمة، فخشيت سرقة الطفل أو تبديله، وتخيّلت جثة السوداني تتجوَّل في الردهات المظلمة تسأل عمَّن يتطوَّع لدفنها. ربما لم أكن أتخيّل، وكان هذا واقعها، وربما العكس هو الصحيح. تخيّلتني جثة السوداني أتجوَّل في المستشفى المظلم وأزيد في وحشتِه!

وأيّاً يكن التخيُّل، فقد غادر السوداني ثلاجة الموتى واستأذنني للنوم في السرير المقابل لي. كان يتألم من ظهره نتيجة برد الثلاجة، والنومِ من دون غطاء، وفتْحِ المواطنين البابَ عليه كل لحظة باحثين عن أقربائهم.

بدأ، بعد دقائق، شَخيراً مطّرداً. يبدو أنه شعر بالدفء والراحة، فالمكان هنا أفضل من ثلاجة اللحوم الباردة.

تبختَرتْ في الممر جثثٌ أخرى أصغر سناً، يبدو أنها لمواطنين قُتلوا حديثاً، فآثار الحرب الأهلية تسِمُ أجسادهم، وإن لم يأتِ أهلهم للنحيب عليهم.

حرب أهلية من دون أهل يبكون قتلاها!

ها... تعجبت في نفسي، كيف يحدث هذا؟!

قيل للموتى إنّ أهلهم نزحوا من بنغازي، ولم يعودوا فيها، لذلك لم يتفقدهم أحد.

لكنّ أكثر من أزعجتني رؤيتهم في قسم النساء والولادة، هم قتلى منسوبون إلى المجهول، قُتِلوا ورُموا في الشوارع. هؤلاء تكتّلوا فيما بينهم وتحرَّكوا في مجموعة واحدة، ولطّخ دمهم الذي لا يتجلط ولا يجفّ كلَّ مكان في المستشفى. وأثار نزفُهم غضبَ الجثث الأخرى التي رفضت الاختلاط بهم بحجة أنها جثث لشهداء يفوقونهم منزلة. كان هناك عجوزٌ يشبه القط عقيلهفيتش والقط سويحليوس، ما انفك يلعب الورق فوق سرير التوليد، وأحياناً يغلق باب الغرفة، ويسلِّط جثة قريب له تحمل عكازًا للجلوس أمام الباب ومنع أي شخص من الدخول.

كانوا ينادون الجثة باسم «يادِم أبو عَطوة»، ويُعهَد إليها منع نساء كثيرات من حقِّهن الطبيعي في الاستفادة من خدمات الولادة الراقية، ومن أن يفتح وزراء ليبيا ومسؤولوها المستقبليون أعينهم في النعيم. لذلك سيعانون نقصاً ستعاني ليبيا جرّاءه؛ لأن عملية ولادتهم ستكون أقرب إلى التغوُّط من الولادة.

كان لعقيلهفيتش، أو السويحليوس، الكلمةُ الفصل في غرفة عمليات «يادِم أبو عَطوه»، كما أقرّت البلدية تسميتها فيما بعد رغماً عن شبشب الطبيب الهندي، وثلاجة الموتى، مع أنّ إدارتها مركزية.

كيف عرفت أنّ لعقيلهفيتش أو السويحليوس الكلمة الفصل في المستشفى؟

لأنه طلب من المدير زيادة رواتب العاملين في نقل الموتى، وأقنعه بالزيادة لمنع العمال من أخذ الرّشوة وتحصينهم ضدها. ثم أخذ رشوة بعد ذلك!

آها... هذا يثبت أنه عقيلهفيتش وسويحليوس معاً.

ما عادت الثلاجة باردة. إنها تغلي من الرفض، وتنتظر اللحظة التي تنفجر فيها. فبينما تمتلئ بموتى لا يجدون ثمن أكفانهم، ينعم عمّال نقل الموتى برواتب خياليّة!

قالت لي جثة المرأة الوحيدة التي عُثر عليها بين ضحايا شارع الزيت، إنها قُتلت بلا ذَنْب، فقط لأنّ سوء حظها جعلها شاهدة على جريمة قتل في مكان وجود منفِّذيها، فطاردوها في شارع ضيّق واغتالوها بكاتمٍ للصوت. ثم رُميت جثتها في شارع الزيت، للتمويه على أسباب قتلها. وهكذا نبتت الأقاويل على حوافّ الجثة.

كانت المرأة تحتفظ بكيس الخبز الذي خرجت لشرائه ذلك النهار، وكانت قد بكت كثيرًا، وتوسلت إلى قتَلتها تركَها من أجل أطفالها. لكنهم لم يرحموها، وإن كانوا قد رحموا أطفالها من الخبز غير الصالح للأكل، لأنها بمجرد أن ماتت كشف عالَم الموت حقيقةَ المواد القاتلة فيه.

تعاني جثة المرأة الآن الموتَ كجثةٍ مجهولة الهوية، وبسبب الميكروبات والبكتيريا التي يصعب فصلها عن الخبز الذي تحمله. باركتُ لها سلامة أطفالها من الخبز المغشوش، ودعوتُ الله أن يُكرمها بدفن سريع كي ترتاح. ولم أرَها بعد ذلك.

كان شبيه عقيلهفيتش والسويحليوس شخصاً انتهازيّاً وكذاباً، يجمع توقيعات مجهولة الهدف من الموتى. ويختلق بينهم موضوعات للجدل العقيم كيلا ينتبه الجميع لسرقته حصصهم من الخدمات الأساسية، فيجرّ الجدل إلى جدل أكبر يودي بهم إلى عراك فيما بينهم، وينتهي به رئيساً للثلاجة في دورة برلمانية ثانية.

إن القطط السمينة على ناصية غرفة التوليد، تكرهه وتتحيّن فرَص القضاء عليه، فوجوده كلاعب كارطة على السرير يعني حرمانها فضلاتِ الولادة، وجثثَ الأجنّة الميتة. بعد طلوع الصبح اتخذتُ قراري بالتوقف عن جريمة الإنجاب والتفشي في هذا العالم.

بعد ٢٠ سنة:

أصبح الطفل رئيساً لليبيا كما هو متوقَّع من الظروف المصاحبة لميلادِه. وتبرّعَ فاعل خير بدفن السوداني، وهو يشخر في سرير حصل عليه في

غرفة الطوارئ بعد تعيينه حارساً هناك (حقق هدفه من المجيء إلى ليبيا في النهاية).

شكّلت القطط قبيلة ليبية عريقة من سائر الأحساب والأنساب، وصارت تُعَدُّ حيواناتٍ منزليةً أليفة، واعتبار ذلك حقّاً لها على المجتمع يجب كتابته في الدستور الجديد.

نشبت حرب أهلية في الوادي الأجدب الذي أُنجب فيه رئيس ليبيا، وتحوَّلت مخاوفي إلى حالة اكتئاب.

سُرقت مخصَّصات الطبيب الهندي المالية، وغادر إلى بلده تحت وطأة التهديد وشماتة القطط السمينة. ولم يأخذ معه شيئاً سوى شبشبه الطبيّ الذي هرب به. وطلبت الممرضة، التي هربت بالطفل، تزكية من رئيس ليبيا للعمل في مستشفى حكومي، للجري بالمواليد الجدد.

وعُيّن صاحب السيارة التي صدمت السوداني سفيراً لليبيا في السودان.

أما عقيلهفيتش أو السويحليوس، فقد ثبت أنه لا يفنى، فهو يُستحدَث ويصعب على الموت رصده، والسبب أنه أحياناً سويحليوس، وأحياناً عقيلهفيتش.

وفي سياق التشابه بين دبي والعالم، أُلقيَ القبض على الطبيب الهندي في كافتيريا هناك، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبيع الكرك، والجباتي، والسمبوسة.

وُجهت إليه تهمةُ انتحال شخصية نادل، وشهد الشبشب الطبيّ على أنه فعلاً كان طبيباً.

مخزن الأشياء الداروينية

قال المخزن لمحتوياته، بعد شكر الله وحمده:

«نحن مجتمع لديه شفافية عالية وتواصل عميق، إلى درجة أنّ التلفاز المصنوع عام ١٩٨٠ يستطيع أن يتجاوب فيه المتكلم مع المُشاهد في الألفية الثالثة، ويمكن تخيّل مدى تواصلنا العميق بين عصر وعصر لولا لوثة الحرب الأهلية التي لوّثت هذا الزمن.

في زيارة خاطفة لمخزن الأشياء البالية في المنزل، نفض عمي سعيد الغبار عن تلفازه القديم عندما كان يفتش عن شمعة يشعلها ويلعن بها ظلام سبع سنوات من الثورة المسروقة، ربّتَ على ظهر التلفاز الذي يعمل بالتّربيت وانقطاع الكهرباء مذ جاء إلى ليبيا.

استكمل التلفاز قراءة نشرة الأخبار التي أوصد عندها عامُ ١٩٩٠ أبوابَه، وكانت تمدح زيارة الأخ القائد مَطعماً في تونس، وتسجيله كلمة هناك.

ارتج التلفاز بالتصفيق... وصفق عمي سعيد هو الآخر، وانتشرت رائحة طعام محترق في المخزن.

أُخرج التلفاز من الخدمة، لأن الناس أصبحت تتفرج على موديل الجهاز، لا على ما يبثه. إنه جيد لسماع أخبار الأمة في المخزن في أثناء البحث عن شمعة أو بطارية شحن، أو من أجل تنظيفه من تجمعات القطط الموشكة على الوضع. إنه يُبقي المخزن متواصلاً مع العالم وغير مفصول عنه.

جلس عمي سعيد على صندوق كازوزة وأشعل لفافة مارلبورو. نسي أنّ زوجته أرسلته إلى المخزن ليأتيها بالفنار القديم، أو بأي شموع متبقية من أعياد ميلاد الأولاد، أو بطارية يدوية، أو حتى عينَي قطة الجيران التي لطالما نامت في مهد سعد الابن حين كان طفلاً.

أي شيء... أي شيء يبدّد الظلام، وإن كان ضوءاً أسودَ.

سرح عمي سعيد في جمال المذيعة مع أنّ هدفه كان الأخبار والوطن، وعلَت سحابة الدخان رأسَه... غطّت وجهه كاملاً وشملت كتفيه.

قالت المذيعة:

- شهدت مدينة سبها اليوم سقوط صاروخ على سرادق عرس، قتل ثلاث نساء وقلَب العرس مأتماً، مع تأكيد مراسل القناة نجاةَ العروس؛ لأنها كانت لا تزال في بيت أهلها. جدير بالذكر أنّ الحرب نشأت بين قبيلتي أولاد سليمان والقذاذفة... بسبب قرد.

أي ما بين قبيلة العروس وقبيلة العريس!

مرَّ، في هذه الأثناء، شابٌّ مسرع من وراء المذيعة، فسقطت فردة شبشبه من قدمه، ومن حرجه تركها. التقطها من خلفه قرد كان يبدو عليه الخوف وبدَوَا كأنهما فرّا معاً، لكن الشاب تخلى عنه. قال القرد للمذيعة «أرجوك خبِّئيني. إنهم يلاحقونني بالسلاح»، فأجابته «لا أستطيع، يجب أن أقرأ النشرة».

كان القرد قد التقط الشبشب للدفاع عن نفسه، فلما رأى رهطاً من أولاد سليمان يأتون خلفه رماهم به، وقفز منتحراً على طريقة قرود التلفاز. وظلَّ يسقط في فراغ سحيق، ثم يسقط في وادٍ سحيق آخر، ويهوي إلى عالم لا قرار له، حتى اتضح أنّ ذلك العالَم المفتوح هو حضن عمي سعيد.

خرج دخان السيجارة الكثيف من أذنَي عمي سعيد بدلاً من أنفه وفمه في إثر سقوط القرد، فأصيب بالهلع:

-يا ساتر... يا ساتر. ماذاااا هناك؟ من أنننننت؟

طلب منه القرد السكوت، واضعاً يديه على فمه وعينيه حتى يمر الرجال الغاضبون. هزّ عمي سعيد رأسه، فتناثر على جاكته الدخان كنداف الثلج.

قال للمذيعة:

-كمّلي يا بنتي علشان اتروحي بكري. الباين قرد القرود هذا حيدخّل الناس في بعضها.

قطّب القرد في وجه عمي سعيد، ووضع يديه على أذنيه قائلاً:

-صحيح أنني قرد، لكنَّ لديّ حَسَباً ونَسباً ونظرية تثبت أصلي. مش

كيفكم مش معروف عن أصلكم إلّا خرافة الخلق من ضلع أعوج، وإلّا زنا المحارم.

حرّكت المذيعة يدها أمام وجهها ضِيقاً من رائحة السجائر واستمرت.

الخبر الثاني في نشرتنا لهذا المساء:

عُثر على سيارة القمامة المخطوفة في زليتن خلال عبورها الحدود الليبية - التونسية، كما عُثر أيضاً على سيارة الإطفاء التي شاركت في إخماد حرائق الحقول النفطية عند الحدود أيضاً. وأُلقي القبض على اللصوص، وسُلِّموا إلى الشرطة.

علّق عمي سعيد:

-أيّ شرطة إذا كانت الناس تطلع في مظاهرات تطالب بتفعيل الجيش والشرطة؟ هذوم صياع زي اللي سرقوا السيارة بس لابسين ملابس الشرطة.

قالت له المذيعة:

-كيف نعرفوا يا عمي سعيد؟

أمست تعرف اسمه من طريقته في الكلام، وهذا من التقاليد الليبية الرائجة، (تكلم حتى أعرف أمك).

أجابها القرد:

-اسألوا السيارة توا تخبّركم.

قال عمي سعيد: «صحيح صحيح، صدق القرد».

رفضت سيارة المطافي الإدلاء بأي معلومات عن الخاطفين. أما سيارة القمامة فقد أعطت أوصاف بعض الأشخاص، من بينهم عميد بلدية.

كان عمي سعيد محبّاً للتاريخ ولحقبة الملكية في ليبيا، وكان يتمنى لو يذيع التلفاز بعد أن تغادر المذيعة إلى بيتها، أحدَ البرامج الوثائقية عن تاريخ استقلال ليبيا. إنّه يعشق الماضي ولا يسمّيه إلّا الماضي الجميل، ويحبّ سماع الأحاديث التي يريدها عنه، ويصاب بالجلطة إذا رُويت الأشياء خلافاً لما يرغب فيه.

كانت أحدث جلطة ضربت دماغه، أول أمس، حين قال التلفاز إنّ موجة البرد الآتية إلى ليبيا من أوروبا ستستمرّ أسبوعاً على الساحل فقط، بينما رغب هو في أن تتمدد إلى الدواخل. له خصم هناك يريد أن يتسلّط البرد على عظامه، لذلك أصيب بالجلطة في الليلة نفسِها.

أنّبت زوجته أولادها، قائلة: ألم أقل لكم لا تدَعوه يشاهد النشرة لأنه سيمرض وسيكون عليَّ تحمُّل عبئه؟!

جاء قطةَ جيرانهم المخاضُ، بينما هو جالس وسيجارته توشك على الانتهاء، فلم يتأثر العهد الملكي بمجيئه.

ولحق بها جرو ابنه سعد، فلم يتأثر العهد الملكي أيضاً.

ولحقت به زوجته عندما شعرت بغيبته، وخشِيت أن تكون الجلطة قد عاودته، فتأثر بها العهد الملكي.

- سعيد، سعيد، وينك؟

- قاعد هنا.

- تي وينك؟

- قاعد مع الكلاب والحيوانات.

- باهي اطلع خلاص معادش نبو الضي.

ربّت على ظهر التلفاز وخرج، ثم التفت إلى القطة والجرو والقرد وحيّاها:

- السلام عليكم.

فردَّت عليه التحية بأحسن منها:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أضاف القرد:

- من فضلك، أغلق الباب وراءك، منذ ليلتين لم يغمض لي جفن من المطاردات. أريد أن أرتاح.

أغلق عمي سعيد الباب كما طلب القرد، قائلاً في نفسه:

- والله مؤدّب ويعرف الأصول أكثر منهم، إلى درجة أن الواحد يتمنى نفسه جا قردا!

أين تهرب هذا المساء؟

هرب أسد البوسكو أثناء القصف.

كانت حياته، قبل القصف، عاديةً كأيّ مواطن ليبي، ينام ويأكل ويؤدّي العمليات البيولوجية الطبيعية ويشعر بالملل. يلتهم يومياً أربع دجاجات بلا سيقان، ويتعب كثيراً من عمله القليل. يخرج إلى الزوّار كي يتفرجوا عليه ويتفرج عليهم، ويتثاءب في وجوههم حتى يروا أنيابه المفترسة، ويشمّوا رائحة فمه العفنة، ويشمّ هو الآخر روائحهم (تبادل ثقافي)، ويأتيه الطبيب من دون أن يتجشّم عناء الوقوف والانتظار في الطوابير، والمواعيد والفواتير المترتبة عن العلاج. وتهتمّ وزارة الكهرباء بإرسال الضوء إليه من دون أن تقطعه مرة، وتلتزم إدارة البوسكو بتوفير شريكة لحياته، السعيدة قطعاً، في بنغازي.

إنه مَلِك حقيقي، وليس في حاجة بعد هذا إلى غابة أو إلى ثورة!

لكنه اضطر إلى ترك جنّته، والهرب منها لأنّ بنغازي أصبحت تحت القصف، والقصف لا يميّز بين مَلك ومملوك. ما إن سمع المواطنون في الراديو المحلّي بهروب الملك، حتى انتابهم الذعر وهربوا خوفاً منه.

هرب الذين كانوا يصطفّون أياماً في طابور البنزين ما إن بلغهم النبأ. هرب أناس لا نعرفهم إلى بيتنا، وكنا نريد أن نهرب نحن أيضاً إلى من نجدهم في طريقنا فحسب. هرب الذين مرّت أعياد ميلادهم مرتين وهم في طوابير الخبز، تاركين صفوفاً من القفاف، بينما أغلق الفرّان المخبز وعلّق لوحة «مغلق للصلاة»، وبلّل سرواله. قرأ «قل أعوذ برب الناس»، وكان يقصد أن يقرأ «الفاتحة»، وربض حاملاً مغرفة الخبز الساخنة لمواجهة الخطر الداهم، قائلاً لنفسه:

- مش مشكلة، «الفاتحة» أول الكتاب، و«قل أعوذ برب الناس» آخره. المهم النية.

مرّ أحد منكوشي الشعور، فضربه الفرّان بعصا الفرن الطويلة، ثم أُغمِي عليه لظنّه أنه أصاب الأسد فعلاً. رفض الطبيب إعادة الفرّان إلى الوعي كيلا يحمّلنا معروف إنقاذنا من الفك المفترس، فهو لن يصدّق أنه دخل الغيبوبة بسبب كائن أشعث منكوش الشعر، وسيتهمنا دائماً بتزييف الحقائق في غيبوبته ونكران فضله.

صراع ما بعد الغيبوبة هو أخطر أنواع الصراع.

قال الطبيب إنّ صحوته من عدمها ليست مهمة، فالفارق بين الغيبوبة والحياة هنا، أن لا فارق بينهما.

كان الجميع يهرب، في الوقت نفسه، وربّما كان من الأفضل لهم ألا يهربوا من شيء هارب، كي لا يلتقوه. امنحوه الطريق ولا تضيِّقوا في وجهه، فاحتمال لقائكم إياه يزيد كلما هربتم منه، إذ تغدو عملية الفرار في الاتجاهين، مجرد لقاء غير عاطفي، لكنه في حكم المدبَّر.

كلما هربت منك وهربت مني التقينا أسرع مما كان لنا أن نفعل (قانون الجاذبية العكسية). ما تكرهه سيتحقق لك لأنك دائم الانشغال به ذهنيّاً.

وعلى الرغم من قوة ذلك القانون وقسوته وسريانه أكثر من القانون الوضعي، فإن الناس في بلادنا خارقون أكثر من أي قانون ومن أي عكس، يملكون صنع عشرة أشياء في لحظة واحدة من دون أن يفقدوا ميزة البقاء في الغيبوبة.

لا ريب في أنّ أسد البوسكو الهارب، لا يملك إحدى تلك الخصائص الفريدة، ولا يستطيع المنافسة عليها، فلماذا هو الأسد حتى الآن، وليسوا هم؟

يحكي أحد الراجعين من الغيبوبة، أنّ الأسد مرّ في شارعنا ودخل بيتنا، وكان البيت صبوراً رحيماً رؤوفاً حليماً، امتلأ حتى سقفه بالنازحين من دون أن ينفتق عند جهتي الحمّام والمطبخ. كانت أمامه مستويات اللحم كلّه (المسن والصغير)لو أنه أراد الفتك فحسب، لكنه لم يجد أحداً صالحاً للهضم. ففي اللحظة التي توقعوا هجومه، حرك ذيله ورأسه بسرعة نحو المستودع. لم يفهم أحدٌ أنه يبعث برسالة تحذيرية من الخطر الآتي، فالجميع مستغرق في سوء الظن، حتى نفِد الوقت وهجمت قذائف عشوائية، حطّمت جزءاً من مدرسة مجاورة، يقطنها نازحو أحياء أخرى منذ عام.

انتظر الأسد أن ينتهي الجميع من شكر الله، لأن القذيفة تخطَّتهم وأصابت المدرسة المصابة مرتين من قبل. وانتظر أيضاً أن يخرج جماعة البدروم ليهنئوا جماعة سطح المنزل على السلامة ويمسحوا عن وجوههم الغبار، ثم يتوجَّهوا جميعاً لانتشال جثث ضحايا القصف العشوائي في الفصول الدراسية.

كان الأسد رحيماً، إذ انتظرهم حتى يفرغوا من ذلك كله، ليتجه نحو خزانة الثياب ويأخذ بين فكيه آخر فستان ارتديته في ليبيا.

يقول الشاهد إنه شاهد في إحدى عينيه دمعة، وفي الأخرى عرقاً.

«ربما تكون تانك عينَي الشاهد وليستا عينَي الأسد!»، يقول شاهد عن الشاهد، ويقول ظنّي إنّ بعض الظن إثمٌ، لكن بعضه الآخر لا.

لقد أساؤوا فهمه، فليس صحيحاً أنّه كلّما هرب أسد، كان مقصده البحث عن فريسة، فهو ليس بهيماً إلى ذلك الحد ليأكل المتردية والنطيحة. إنّ أحداً لا يريد أن يتذكّر أنّ الأسد يجوع، لكنه لا يأكل الجِيَف. وهو مواطن ليبي أصيل أكثر من الليبيين أنفسهم، عرف ليبيا وسكنها قبلهم، وتُستحسَن له العودة لتصدُّرها من جديد، بعد أن تصدَّرتها أسود مزيَّفة، أفرغتها من الحياة ووضعتها على حافة الانقراض.

إنّ أحداً لا يقدّر حجم التآمر عليه في كتب التاريخ، إذ طُمس وجوده الأسبق لوجود الإغريق والأمازيغ والرومان والعرب في ليبيا. وعلى الرغم من ذلك فإنّ جدّ أمّه لم يُتلف خلايانا الدماغية بزئيره وادعائه المُلكية التامة لليبيا، كما يدَّعيها كل عرق من الليبيين لنفسه اليوم.

مضت حياته متواضعة، ينام ويأكل الدجاج بلا سيقان ويتثاءب، وأحياناً يقدَّم إليه لحم الحمير فلا يستحمر، حتى نفّذ العملية النوعية اليوم في المدينة، وهي عملية جديرة بتسليط الضوء عليها حين تعود الكهرباء، ففرض هدنة إجبارية على تيوس تتقاتل لقيادة قطيع ليست بالمهمة السهلة.

في بنغازي الثرية بالقصف والخيلاء، قيل إن الأسد التهم شخصاً لم يتعرف إليه أحد، أو لم يرغب أحد في التعرف إليه، ولم يبلّغ أحد عن فقدانه، وليس له أهل كسائر «البنغازيين» أولاد البلد. هو لقيط من لقطاء كثر ربّتهم المدينة، وليست لهم شجرة عائلة، أو حتى مزهرية وضيعة ينتمون إليها، ببساطة لأنهم جاؤوها من البعيد. لذلك من غير القابل للجدل ألا يتمكن أحد من التعرف إليه كإنسان، مالم يكشف عن مكان قبر جدّه الحادي عشر؟ وهل مات بالزحار، أم استشهد في إحدى معارك الفؤوس؟

هذا اللقيط الذي أكله أسد البوسكو، هو من ضروريات الحياة اليومية البنغازية، لتجرُّعه مع شاي الغداء؛ لتدويره مع الأحاديث؛ لمنحه الدورَ السلبي في تاريخ المدينة؛ للبصق عليه عند حدوث مكروه وتحميله المسؤولية.

إن فقدانه لن يثير شفقة أحد، حتى ولا شفقتي أنا. يستحق أن يفترسه أسد البوسكو، إذاً، بل إنّ أسد البوسكو لم يُخرجه من قفصه للقيام بهذه المهمة النبيلة إلا دعواتُ الصالحين. وهي مهمة عجزت عنها أقوى التكوينات العرقية في المدينة لتطهير بنغازي ممن أتاها للعيش، وكان قادراً على إحيائها أكثر ممن سبقه إليها وتملّكته الغيرة والعجز. ذلك الشخص مهم، لكنه لا يثير الشفقة إن حدث له مكروه. سيخلو لنا وجه المدينة منه، لعلنا نزرع فيها شجرة أو ندفع عنها قمامة!

أخي الأسد: لا أستطيع منحك خارطة طريق جاهزة، فأنا لا أملكها لنفسي حتى. ليس لديّ أكثر من نصيحة لفرار ناجح. إذا كنت محظوظاً وهربت من بنغازي، فواصِلِ الهرب، لأنّ سكاناً في المدينة ممن يتطرفون في ملكيتها لهم وحدهم، سيَسومونك بكل عيب، لمجرد أنك تضرب في الأرض وتسير في مناكبها. يضيف إليهم هروبك الجبان عيباً آخرَ، فلا تعتمد على عقل رشيد بينهم يقول لهم: وما العيب في ذلك أيُّها الراسخون في التراب. إنّ عيسى بن مريم لم يكن له أب ولا قبيلة يسند ظهره إليهما، لكنه اصطُفِيَ نبيّاً لأمم من الناس. كما صار يوسف الذليل في أرضه عزيزاً خارجها وفي غير موطنه، بل إنّ الإنسان وصل إلى الأرض التي تدّعون ملكيتها من عالم آخر، قطعاً، ليس ليتحمَّل شؤم العيش معكم، بل ليحييها، فأنتم لم يثبت لكم وجود في اتفاق الخلافة عندما أبرمه الله مع الإنسان.

لن ينتهي الفرار بمغادرة بنغازي، فليبيا كلها تتشابه مع نفسها، وتتنافس مع ظلامها.

قال الأسد بحزن: هل أهرب إلى سرت؟

- إياك يا أخي، فداعش ستكون أمامك وأُسود مصراتة وراءك.

- هل أهرب إلى البنكينه[1]؟

- كلا، فهناك سمكة الأرنب المسمومة تهاجم الصيادين وتلتهم صيدهم

---

(١) البنكينه: اسم يطلق على رصيف بيع الأسماك في مدينة بنغازي، وتعني أيضاً مقاعد جلوس المتفرجين ولاعبي الاحتياط.

وطعومهم. من سخرية القدر أن تفتك سمكة بأسد. إنّه لمن الشرف لك أن تموت برصاص بنغازي الطائش من أن تقضم مؤخرتَك سمكةٌ سامة. ثم إنّ ريّاس البنكينه دائماً في حالة سُكر وعربدة، وقد يسبُّ أحدهم أمك من باب طبيعة البذاءة هناك، فلا يتحمل قلبك ما يتلقّفه منهم فيحدث بينكم مكروه برمائيّ، لا قدر الله.

- هل أهرب إلى طرابلس؟

- إياك وطرابلس كذلك، فأنت فيها مجرد عائد من الشرق. سيقول لك المثقفون من أهلها، ممن وُلدوا بمؤخرات مختوم عليها «طرابلسي أصلي»: اترك لنا مدينتنا المتمدنة الجميلة، فقد وسّختها وأكثرت فيها الزحام، وجلبت ثقافتك البدائية معك، ونشرت فيها تشقق الأقدام. ارجع إلى قريتك ولا تتملّقْنا وتكثرْ من التزلُّف، رغبة في منصب ليس شاغراً إلا لنا أيها الحقود الحسود الغيور. دفعة من اتهام الذات بالتمدن واتهام الآخرين بالتوحش، سوف تستغربها، ثم تتشابه عليك المؤخّرات وترحل، فلا تتورَّطْ في الذهاب ما لم تتطلب معاملةُ هروبك من البلد التورطَ في ذلك.

- هل أهرب إلى طبرق؟

- إياك أن تتجه إلى طبرق لأسباب عدة، أوّلها أنّ فيها البرلمان؛ أعني مكان تجمع الذباب. وثانيها أنك ستكون ملزماً باستخدام جسرها الشهير، الذي إن مررت فوقه تسقطْ، وإن مررت تحته يهوِ بعضهم عليك. فلا تغامرْ بالذهاب إلى هناك إلا بعد خمسمئة سنة من التنمية.

- هل أهرب إلى الحدود؟

- إياك وامساعد[1] ستجد فيها أناساً يهرّبونك إلى مصر شئت أم أبيت، حالك حال البلاستيك والحديد والنحاس والنعاج والخبز اليابس والآثار والسلاحف والأغنام وبيض الدجاج والسلع التموينية وجوارب الأطفال والهواء. وقد يبيعونك لدواعش درنة، فرأسك ليس أيَّ رأس. وهكذا تعود إلى ليبيا مقيّداً بعد أن تحرّرتَ ولم يتحرّر الوطن!

- هل أهرب إلى مناطق الأمازيغ؟

إياك ثم إياك التوجه إلى ربوع الأمازيغ، فأنت فيها أسد عربي دخيل متخلِّف تهدد حضارتهم الممتدة في البنيان، وتغزو عمرانهم الذي طاول السماء وتمحو علومهم التي رفعت ليبيا إلى مصاف التقدم، بل إنك تتزعم أخطر عصابة عرفتها المجرّة، لتهريب وقود ليبيا وبنزينها، وتتاجر بالبشر، من دون أن تتحرك من رأسك شعرة. لا أحد سيثق بك وبنيّاتك هناك، أيّاً تكن اللغة التي تخاطبهم بها؛ فنظرية المؤامرة العربية فعّالة لديهم، لا ينفد شحنها. فحذارِ ثم حذارِ!

- هل أهرب إلى درنة؟

- إياك ودرنة، إنها غابة من الدواعش، ملكها «بن قمو» يصبغ شعره الأشعث بالحنّاء، ويختفي في الجبال ليُنجب الخلفاء المؤمنين، ويطوِّر أساليب جزّارة يقطع بها في ثوانٍ مَن استغرق الله في خلقه تسعة أشهر.

إياك أن تثق حتى بجِلدك هناك وبقدرتك على النفاذ به، فكم هو مُغرٍ جِلدك

---

(١) آخر نقطة على الحدود الليبية – المصرية.

لرجل يعيش بين الحفر ويرمي العالم بالطُّوب الذي يمسح به مؤخرته. استفِدْ من درس آل الحرير[١]. يرحمك الله... يرحمك الله.

- هل أهرب إلى طلميثة وشحات؟

- وهل تظن أنّ المدن الأثرية في منأى؟ هي أطلال خالية إلا من البراز الطريّ في الأوقات العادية، ومستهدَفة بقواذف داعش في الأوقات الداعشية، وبلصوص الآثار في كل آنٍ. سيعثر عليك أحد اللصوص هناك، ظانّاً أنك أسد أثري. تجنَّبْ ما استطعت مصير أسد شحات العريق، الذي هرّبوا رأسه، ووضعوا ساقه في الإسمنت. فهل يروقك أن تصبح أسداً بلا رأس، ونصفه خرسانة صُبغَ عليها توقيع صلاح بقشة ومرعي الفايدي[٢]؟

- هل أهرب إلى الجنوب؟

- ستعامَل بحفاوة لا نظير لها هناك، على الرغم من اشتعال حرب لا نظير لها، يتمّ تلطيفها بتسميتها «خلافاً عائليّاً» مع أنها حرب عالمية تغذيها الدّولُ العظمى بالأسلحة والعملاء. حاوِل التمسك بصفة الضيف والتنصل من العلاقات العائلية، كيلا تجد نفسك مستهدَفاً. احرص، خلال الحرب العائلية الباردة، على أن تفوتك القذائف وألا يفوتك «الفتات»[٣]. كما لا تنسَ أنّ من خصائص الحرب هناك أن تنشب بسبب أي شيء، حيواني،

(١) آل الحرير عائلة من درنة واجهت الدواعش فقُتلت رجالًا ونساء وصُلبوا أمام بيتهم

(٢) أشخاص اشتهروا بكتابة أسمائهم على الآثار.

(٣) طبق من المطبخ الليبي يشتهر به أهل الجنوب.

نباتي، إنساني، جماد، المهم ألا يمرَّ الموسم من دون حرب يتقاتلون فيها على لا شيء.

- هل أطير؟

- إن طرت، فإياك من خطر يظهر بلا توقيت في الفضاء، لا يختلف عن الصحن الفضائي الذي زار بلدة العجيلات، وسرق منها أضواء «قطْع التابْعة». إنه سلاح الجو الليبي، يطير حتى من دون أضواء ليلاً، ويصرّح قائده بالأهداف التي سيضربها قبل أن يضربها. ما لم تستمع إلى نشرة الضرب اليومية، منه شخصياً في التلفاز، فلن يمكنك تحديد المكان الذي ستهرب إليه، كما يفعل الدواعش. فاستمع، ثم توكّلْ على الحيّ القيّوم، واهربْ!

- هل أهرب سباحةً؟

- الهرب بحراً يوجب عليك أن تكون تحت رحمة قراصنة صبراتة والخمس وزواره، أمّا إن غرقت فستتحول من أسد إلى سمكة. ولن تكون في منأى من مصير الآلاف من الأفارقة الذين أكلتهم الحيتان وتحولوا إلى تونة وسردين.

- هل أبقى هنا، وأتحصّن بالمنجيات السبع؟

- إذا تحصّنت بالمنجيات السبع فربما استطعت أن تنجو، كما قلّة من الموتى. واصل الهرب نفسياً أرجوك، واصبرْ، فأنت حقّاً شجاع ونبيل، ليس لأنك تملك عدة افتراس طبيعية لم تستخدمها قط، بل لأنك استطعت العيش معنا سنوات طويلة من دون أن يتخلّل سجلّك أي سابقة.

- هل أهرب إلى العام ١٩٩٨؟

-أقترح أن تذهب إلى العم سعيد، فإنّ لديه مخزناً مكدَّساً يصعب عليك العثور على يدك في ظلامه. لكنه مخزن سعيد حقاً، ويحظى بهدوء نسبي مقارنة بالعالم الخارجي.

سمع الأسد النصيحة وذهب. رحبت به الحيوانات التي وجدها متحلقة حول التلفاز في جلسة ودٍّ على نقيض جلسات حيوانات البوسكو في الخارج. سألها، ودموع الفرح تملأ عينيه، كيف علمتْ بقصته، فأخبرته والدموع على وجوهها شلال:

-سمعنا خبر وفاتك في قناة النبأ فعرفنا فوراً أنك حي. فصلَّينا صلاة استخارة من أجل قدومك إلى هنا. وها قد استجابت السماء، فيا رحمة الله!

أجهش الأسد بالبكاء، بينما قطعت مذيعة النشرة الجوية قراءتها لتُهنّئه بالوصول. فانقطع القِبلي أيضاً. وقلّصت عارضتا مرمى المنتخب الوطني من اتساعهما حتى لا يدخلهما المزيد من الأهداف احتفاءً بنجاته. كما عثر عمي سعيد على شمعة لم تُضَأ ولم تنطفئْ منذ العيد العاشر لثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة. وولدت قطة الجيران ستَّ قطط ملوَّنة للمناسبة.

كان قدومه بشرى خير بجميع المقاييس، لذا طلبت منه المذيعة تقديم نصيحة إلى جمهور برنامج «أين تهرب هذا المساء؟ » بشأن هروب مثالي وناجح ومشروع في ثلاثة أيام. فقدّم الأسد النصيحة، ثم سقط ميتاً، على الهواء مباشرة.

لقد أصابته ، في مقتل، عين أحد المشاهدين!

صفقة رتيبة

لم يعد عبد السميع يسمع شيئاً آخر من مضمون المكالمة. فكلُّ ما قيل له بعد جملة «خطفنا مراتك»، كان صفحاتٍ مقتبسةً من قاموس «لسان العرب»، فحسب.

كل ما فعله دماغه في رد فعل حائر هو رسم ثلاثي البعد لمخيّم نازحي تاورغاء[1] في بنغازي، يتقصىّ منه أسباب اختطاف فتحيّة زوجته. تُرى، لماذا يختطفون امرأة فقيرة مهجَّرة في مخيَّم؟ ثم فحْصٌ سريري خيالي سريع لمواطن الإغراء فيها والتي يمكن أن تشكل دافعاً إلى خطفها.

زاد عبد السميع في تخيّلاته حين بلغ فحص الساقين، ووجد ألا فارق بينهما وبين لحية الشيخ خالد، ففتحية منذ نزوحها لم تستعمل السكر المعقود. فهل يعرف خاطفو فتحية قصة شعر ساقيها النازحتين، ولماذا لم تنزعه عنهما منذ بدأت الحرب في بنغازي؟

(١) تاورغاء مدينة ليبية هجّرتها مدينة مصراتة نتيجة موقفها من ثورة فبراير ٢٠١١ .

ليس لأنّ فتحية، لا قدر الله، زوجة لا تهتم بنظافتها الشخصية، أو لا تأخذ في الاعتبار الرغبة الحسية لشريكها، بل لأنّها مذ نزحت عن دارها في تاورغاء لم يعد لديها مكان خاص، ولم تعد تجد مكاناً لا يشاركها فيه أحد؛ فهي تتنقل من مدرسة إلى مدرسة داخل بنغازي، في وضع متهتك، تعجز فيه عن الحياة، فما بالك بالخصوصية.

فتحية النازحة من تاورغاء إلى بنغازي على بعد قرابة ألف كيلومتر، نزحت مجدداً داخل بنغازي. فمسلحو مصراتة وحلفاؤهم صاروا يلاحقون الجميع بالصواريخ والبنادق والألغام... والهراء.

تركت فتحية طنجرة الفول على الحطب الذي أشعلته في المخيم ريثما تتسامح معهم مصراتة فيعودون إلى مدينتهم، لكن ما حدث كان مخالفاً للتوقعات، فمصراتة لم تتسامح، بل لاحقتهم ولاحقت غيرهم، وزرعت الألغام في دروب العودة كلّها، واستولت كذلك على الطنجرة والفول.

هكذا، وُجدت نسخة مطابقة من لحية الشيخ خالد في مدارس بنغازي، ووُجدت نسخة مطابقة لساقَي فتحية في القنوات التلفزية المتدينة.

اهتزّ رأس عبد السميع على جسده، كأنّه تذكّر آخر صعقة كهرباء أصابته في مستشفى تاورغاء العام، حيث عمل سابقاً في تصليح الثلاجات.

خُطفت فتحية، هل هذا معقول؟!

أي ضمير لدى هؤلاء؟ ألا يكفي أن يعرفوا أنّها من المخيم البائس؟!

ذهب عبد السميع إلى فصل رابعة أول، حيث تقيم عمته أم فتحية، وحاول

تمالك نفسه وشبشبه الصغير كي يخبرها بأنّ فتحية لن تعود اليوم إلى المدرسة، وأنّ لحية الشيخ خالد في ضيافة عصابة من عصابات الخطف في مقابل الفدية.

في المسافة ما بين الفصل الذي يقيم به والفصل الذي تقيم به نسيبته، وردت في ذهن عبد السميع جميع قصص الخطف التي سمعها عن الضحايا مُذ أصبح لاجئاً داخل وطنه. وأحدثها القصة التي سبقت خطف فتحية، وتتعلق بقريب خطف نسيبه بالاتفاق معه ليساوما عائلتها على الفدية، ثم يقتسماها معاً ويبدآ مشاريع المستقبل.

لكن، لماذا تتضامن فتحية مع الخاطفين، وهي تعلم بأنّهم لا يملكون في المخيم سوى أمطار السماء، وبرد العراء، وحزمة بصل؟

هل للحادثة علاقة بخلافهما يوم أمس بشأن المبلغ الذي حصلوا عليه صدَقةً؟

قال له الشيطان الواقف عند باب الفصل السادس الأول:

-زوجتك ذهبت تبيع الهريسة العربية والكعك وأنت لا تعلم.

-هل يعني ذلك أنّها كذبت عليّ؟

سأل شيطان عبد السميع الشيطانَ المدرسي، فأجاب الأخير:

-نعم، الكعك والهريسة، وليس كعكاً فقط كما أخبرتك.

ضاقت المسافة بين حاجبَي عبد السميع حتى كأنّهما الْتحما بلحام بارد.

قال للشيطان:

- إذاً، نهارها أسود غير تعاود بس.

وكان قد دخل، هنا، فصلَ «نسيبته»، ودخلت معه بقية الجملة الأخيرة من الكلام، فسألته نسيبته، مستغربة:

- من اللي غير تعاود بس؟

- فتحية.
قالها، متخلصاً من التردد.

- ما عندها وين تمشي ولا عندها وين حتمشي. فرقت حالها وحالنا[1].
قالت أمها بتحسُّر.

رد عبد السميع أو الشيطان:

- مشت خلاص.

وقعت السبورة على رأس العجوز من هول النبأ، وولْولت بطبقة صوتية لم تستعملها منذ وفاة زوجها، أطاحت في أقل من دقيقة بجميعَ سبورات المدرسة.

- ووهوه يا بنيتي، وووه شني طرالك؟

وازدادت فتحة ثوبها عند الصدر تمزُّقاً، وتبعثرت الرياضيات في المدرسة مثل قنبلة سكر انفجرت فوق الهرم العلمي الشامخ.

(١) أنى لها ولنا.

اتصل أحد الخاطفين بعبد السميع بينما كانت حماته تولول وصوتها يكسّر الأشياء العالق بعضها ببعض. كان واضحاً من صوته أنه وضع جورباً على نقال البيله (جَدّ هواتف نوكيا) الذي يتكلم منه. فالبيله جهاز مضمونٌ عدم تتبعه، حتى وإن كانت ليبيا بلداً بلا شرطة وبلا عدل وبلا قانون، ولا يتتبع فيها المجرمين أحدٌ حتى ولا القضاءُ والقدَر. لكن اللصوص اتخذوا الاحتياطات الذكية ضماناً لسلامتهم. طلبوا الفدية من عبد السميع، ورفضوا الاستماع إلى أي كلمة يقولها. كان قد قال كلمتين فقط: أمها عجوز وطفلها رضيع.

أغلقوا الخط، ثم عاودوا الاتصال بعد نصف ساعة. ظن عبد السميع أنّ الله أنزل الرحمة في قلوبهم على فتحية، إلا أنّ الشيطان طلب منه التوقف عن السذاجة، فالله أجدر به مساعدة فتحية وتحريرها من الأوغاد عوضاً عن إصلاحهم وإنزال الرحمة في قلوبهم وتأهيلهم على حسابها!

ظل عبد السميع ونسيبته وبعض أقربائهم من الفصول الأخرى ينتظرون أن يرنّ نقال البيله ويشفق الخاطفون. لكنّ الهاتف لم يرن تلك الليلة الطويلة من شتاء بنغازي القاسي، فقد اجتاحت الأمطار مخيم نازحي تاورغاء، وغرق غرقاً تاماً.

ولم يبقَ من مشهد الانتظار العائلي سوى شبشب عبد السميع الصغير، الطافي قرب طنجرة الألومنيوم التي رافقت فتحية من نزوح إلى آخر.

لم يصدق الخاطفون فتحية وهي تتوسَّل إليهم بعظام مرتعدة:

- أقسم بالله، الفيلا ما هي ليا، أني نخدم فيها شغالة ومولاتها في مصر.

قال أحد الخاطفين: صاحبة الفيلا من الأزلام[1] اللي هربوا من الغرب للشرق. يعني فلوس، يعني ما تضحكيش علينا يا جيفة الجيف.

لم تصدق العصابة أنّ عبد السميع لم يعد يرد على مكالماتهم لأن نقاله غرق مع المخيم، واعتقد أحدهم أنه أضمر التخلص من زوجته. فهذه النية لطالما خامرت أحلام الكثيرين مع التطبيق العملي لنظرية الفوضى.

غضبت العصابة من رتابة الصفقة وتعقدها الذي تزامن مع سقوط قذائف على المخيم كانت موجَّهة أساساً لفضّ تظاهرات ساحة الكيش[2]. ثم تعقَّدت المسألة أكثر، لأنّ رصاصة طائشة من الخارج اخترقت رأس فتحية بينما كانت تطبخ لخاطفيها طعامهم، فطلبت النجدة منهم. خاف أفراد العصابة، وقال الشيطان: يجب أن نسعفها، المرأة حية.

فقال له أحدهم: أنت ما يسيرش منك، قاري في مدرسة خاصة وما زلت ناعم.

قال زميله: نعزقوها في باركيدجو مستشفى ١٢٠٠ سرير.

عليك بخت معفن بختنا!

قال المجرم الأصغر: كله منك أنت، أنت اللي قلت نمشو لفيلا الأزلام، وقعدت تحكي عن التخطيط الاستراتيجي نين ودرتنا براياتك.

---

(١) لفظة يُنعت بها أنصار القذافي.

(٢) ميدان شهير في بنغازي شهد تظاهرات كثيرة.

استمرت المداولات بشأن فتحية حتى لفظت آخر أنفاسها في مكان لا تعرفه ولم تأته نازحة أو مطارَدة، بل مخطوفة. ودّعت روحها طفلها الموجود في المخيم، ثم غادرت المخيم إلى جوار الله.

ظل جسدها مرمياً لدى الخاطفين، فسكروا حوله لينسوا حظهم التعس وفشل أول عملية إجرامية لهم.

كانت بنغازي تغرق في الخوف والظلام والإجرام، وقد وفرت غطاءً لسحب الجثة ورميها في باركيدجو مستشفى ١٢٠٠ سرير، غير أنّ جثة سبق مجيئها إليه هي التي أرشدت عصابة طلبة الطب الناشئة ونصحتهم قائلة:

- لا يوجد مكان شاغر هنا يا أبنائي، اذهبوا إلى شارع الزيت، فإنه مكان مناسب، لن يكتشفكم فيه أحد.

عاد أفراد العصابة بعد فشل الصفقة إلى وضع المصنع[١]، وأرادوا تقديم خدمة للعلم بتشريح جثة فتحية.

سال دمها المحروق مثل زيت المحركات على يدي حامل السكين منهم، والذي قال لزميله:

- اكتب يا غلام، بعد الصلاة والسلام على خير البرِيَّة، القلب متليف، والمرارة مليئة بالصديد. الجلد ميت منذ سبع سنوات، والمعدة يتقاسمها

(١) مصطلح إلكتروني يعني العودة بالأجهزة إلى حالتها الأولى أو المبدئية(Reset) ويرتبط بالمساعدة على معالجة الأخطاء.

أرزّ الصدقات والدقيق الأوكراني المشع، والكبد محفورة فيه أغانٍ للعَلَمْ[1]:

شانن يا وقت مفاعيلك يا عونن من عزم لقيلك[2].

مشنون يا زهاي بحزن امتـا نهـار صـافي جيتني.

أما الثديان فيملأهما حليب منزوع الدسم، وهي نتيجة لن تستفيد منها الثورة العلمية كثيراً. وقد اختلف اثنان من علماء المستقبل بشأن حالة الدماغ، إذ رأى أحدهما أنه تمزَّق بسبب الرصاصة الطائشة، بينما كانت للآخر نظرية مغايرة بشأن الرصاصة التي شكّلت دافعاً لتمزيق المخ فقط، حين قامت بدفع نتفة متبقية من فأس قديمة في الرأس في اتجاهه، أدت إلى تفجيره.

رقدت فتحية رقدتها ما قبل الأخيرة في شارع الزيت، ملتصقة بجثة رجل منحها الدفء وأزال عنها برد النزوح حتى بعثت الحياة في جلدها الميت. كانت حقيقة لا يمكن نكرانها للموت في شارع الزيت، لإتاحته فرص التعارف بين القتلى من دون حواجز طبقية أو عشائرية أو نوعية.

تزحلقت جثة أخرى عليها آثار تعذيب على جثة فتحية، فكشفت عن ساقي فتحية اللتين ستساعدان على التعرف إليها. أما وجهها فلم يعد يشكل دليلاً على أنها هي. تغير كثيراً حتى بات وجهاً لفريسة، لا لامرأة.

---

(١) أغنية العلم، هي قصيدة شعبية من بيت واحد.

(٢) قبيحة تصاريفك أيها الدهر... طوبى لمن لديه العزم والقوة لمواجهتك.
مختلط بالحزن يا فرحي... لم يحدث قط أن أتيت فرحاً خالصاً.

أولياء الله الطيارون

تخلصت ليبيا، في العام ٥٨٧ قبل اكتشاف آبار النوتيلا في طرابلس، من قرون الأرباب الوافدين إليها من بلدان أخرى، كالرّبة ليبيا والرّب قرزل (أمه بقرة ليبية)، وبدأت مسيرتها نحو انتخاب ربّ ليبي مئة في المئة، يكون مسؤولاً عن كل شيء بموجب قرار دستوري.

لعل أهم خلاص لليبيا في ذلك العهد، كان الخلاص من سيطرة الرّب قرزل، المسؤول عن عادة ذبح القرابين عند شراء بيت أو سيارة جديدة. ونظراً إلى أزمة السيولة التي تعتري البلد وعجز المواطن عن شراء الخبز، فإن الربوبية للثور قرزل اتجهت إلى أن يذبح المواطنُ مواطناً آخراً، حفاظاً على تراث الذبح.

ثم سُرّبت، رويداً رويداً، مستندات الرّب قرزل الخاصة على الفايسبوك، واكتشف الليبيون أنّ قرزلاً ليس ليبيّاً مئة في المئة، أي أنه «شنين»، فأطلقوا

على مواقع التواصل الاجتماعي حملة «اطردوا قرزلاً، قرزل غير ليبي. قرزل لا يتحدث التيفيناغ».

واستمروا يرفضون، بمساندة دار الإفتاء، منح أبناء الأم الليبية من أب غير ليبي شرف الجنسية الليبية العظيمة.

أمّا الرّب «بوصيدون» فقد ثبت أنّ عينيه زرقاوان، وهو المسؤول عن شؤون البحر الليبي وزرقة العيون كذلك، وهو ما شفع له بالبقاء والاستمرار في الحياة الليبية، فمعشر الليبيين مفتونون بالعيون الزرق والبشرة البيضاء. لذلك، بوصيدون لديهم هو الرّب.

في العام ١٣٠٠، أي قبل اكتشاف أول بئر للنوتيلا في طرابلس بقليل:

كانت ليبيا قد تخلصت من أربابها البدائيين، واكتشفت أن من الجهل والتخلف عبادةَ رب أمه بقرة، ناهيك عن التبعية لأجنبي وافد من خلف البحار، لو كان صالحاً لأصلح حال بلده قبل بلادهم.

كانت ليبيا تعج بالأولياء الصالحين الذين شكلوا أكثر من نصف عدد سكانها، وكانوا يقومون بمهماتهم التي أوكلت إليهم على أتمّ وجه. فمن له خوارق في الزراعة ساعد بها المزارعين. ومن له خوارق في الطب ساعد كليات الطب على ألا تكون من عادات هذا البلد. ومن له خوارق في التنقيب ساعد في اكتشاف البترول. ومن له خوارق في المحبة ونزع الكراهية وزراعة المشاعر الحسنة بذل ما في وسعه لتحسين الشخصية

الوطنية. أمّا من كانت له كرامات في البناء، فقد حاول المساعدة في استكمال آثار الإغريق والفينيق والرومان، فهي من وجهة نظر الصالحين عبارة عن مشاريع إسكانية غير منتهية، حالها حال مشاريع اليوم. أيضاً، هناك أولياء مصدر دخلهم المساعدة على زيادة عدد السكان من الذكور، يُلجَأ إليهم لبسط السيطرة على الحيوانات المنَوية الجامحة تجنباً لإنجاب الإناث. حتى صارت ليبيا بلاداً مذكَّرة بالأسياد، ولا مكان فيها لكرامة أنثوية واحدة.

كان الذكور ينجبون الذكور.

هكذا، جرت المقادير في القرون السابقة لاكتشاف آبار النوتيلا في طرابلس.

وفي العام ١٨٠٠، بحسب تقويم ضرب الحجارة بالحجارة لأغراض متعددة:

كان الولي الصالح عبد السلام الأسمر يؤدي عمله بشكل اعتيادي؛ كان عائداً من أثينا في رحلة متأخرة، استعاد بها مواطنة ليبية خطفتها آلهة إغريقية منحلّة أرادتها للمتعة. تدخّل سيدي عبد السلام بعد أن استجار به أهل الفتاة، وطار متفوقاً على سرعة طائرات إيرباص، فاستعادها، بحمد الله، عذراءَ لا شية فيها. وعاد بها سالمة إلى أرض الوطن. وهو الآن يطير في رحلات مكوكية لاستعادة المسروقات الليبية، وإلا لأصبح من دون عمل، عدا البقاء في تلك الزاوية المحلية، يحفظ القرآن، ويرقّي الأطفال، وينتظر أن يأتيه الدواعش لينبشوا مرقده ويُخرجوه منه.

كانت لديه ليل أمس رحلتان. وضع الفتاة في فراشها، كما لو كانت تغطّ في نوم عميق، ولم تنقلب حتى على جنبها الآخر. وكان سعيداً بفرحة أهلها بها حين قاموا من نومهم منتصف الليل ووجدوها في سريرها.

كذّبَ اكتشافهم وجودَها في السرير جميعَ الأقاويل عن أنها تهرب من نافذة الحمام ليلاً لتقابل رجلاً.

كان عصر كرامات بكل تأكيد، وعصر نوافذ بلا حديد، أي عند اكتشاف أول بئر للنوتيلا في طرابلس، وتراجع شعبية مشروب السحلب، واعتراف ليبيا بالبطريق طائراً.

كان الطقس رائعاً من دون مقدمات، ومناسباً لغسل الثياب المتراكمة منذ أيام من دون كهرباء. كانت الحياة تحاول أن تدبّ في الأشياء الميتة والساكنة. والناس لا يزالون في طوابير أمام المصارف لاستلام مرتباتهم، وفي طوابير الخبز التي فرضت استعمال نظام «الجي بي أس» لمعرفة أي الأفران أقصر طابوراً.

كان دق الخبز اليابس يسير على ما يرام في فضاءات الأسطح والبنايات والفراغات العامة والخاصة. وكان الحصان الأبرص، والمشار إليه بالتشيكي، يمارس غريزته على ما يجده أمامه في حي اللثامة، ومحمد خبزة (مالكه) يطمح إلى أن يرتقي به إلى مرحلة جواد على الرغم من قبحه وكِبَر سنه.

كانت الأسلحة التي دخلت بنغازي أمس فقط، تتجه لمواجهة الأسلحة الآتية من مصراتة منذ أشهر في مناطق قنفودة وسيدي خريبيش وسوق

الحوت. وكانت البنكينه قد فرغت من الأسماك ومن ريّاسها السكارى، واستوطنتها سمكة الأرنب القاتلة.

وكانت حركة التهريب على الحدود الشرقية والغربية يعيبها، لوضوحها وصراحتها ودقتها ونجاعتها، أن يقال عنها تهريب. كانت زوارة وصبراتة والخمس تواصل مواهبها القديمة في النخاسة بالمهاجرين وتهريب الوقود، وتمارس أوروبا، في المقابل، مواهبها القديمة في رؤية الوقود وعدم رؤية النخاسين وادعاء التحضر.

ولم تكن الأمور في البحر سيئة كما تبث النشرات، فالقوارب تمتلئ بالمهاجرين وتتكل على الله في مرساها ومجراها كل حين.

وتضع الأسماك بيوضها، في حركة مماثلة تحت الماء، وتواصل أكل بعضها بعضاً والتغذي على الجثث الطرية. أما البائتة فتتركها للهلال الأحمر الليبي. وفي السماء، كانت الشمس التي غادرت كوريا الشمالية منذ ساعات، تأتينا مستعمَلة، وكورية، تجفف خبزاً هنا ولحماً هناك، وملابسَ هنا وملابسَ هناك. لكنها تدور وتلف أمام أنفه غربال!

كانت الأمور جيدة بالنسبة إلى طائرة تطير من دون طيار، لكنها حتماً لن تسير من دون فريق استخباراتي يديرها من بعد. الأمور جيدة كذلك بالنسبة إلى الملائكة التي تحمل الأخبار للسماء السابعة، ومن هناك تتلقاها في حركة تداول نشطة.

كانت الصحف تواصل أكاذيبها، وباعة البضائع الزائفة لا يتمنون انتهاء الحرب حتى لا تنفد بضاعتهم، والمكاييل تزداد مرونة ورشاقة.

وكان سيدي عبد السلام الأسمر، الوليّ الصالح الأخير المتبقي في ليبيا، يواصل عمله القديم في الاستجابة لدعوات الليبيات وتحقيق أمانيهنّ ومساعدة الكثيرات منهن على الهجرة وطلب اللجوء الإنساني.

كان جدول أعماله حافلاً بنجدة النساء ذلك النهار، وقد استنجدت به مواطنة ليبية خطفتها مجموعة مسلحة، فنادته بينما كان عائداً بأخرى حررها للتو من ميليشيات عاتية.

في ذلك اليوم، حدث ما أربك نظام الطيران الأسمري، وجعل الحركة السابق ذكرها تضطرب ويتداخل صغيرها بكبيرها، بما فيها حركة الحصان التشيكي الكهل في حي اللثامة. لقد حدث أمر جلل أدخل التروس بعضها ببعض، بعد أن كانت منتظمة. قالت الملائكة التي قابلت الأسمر في الطريق:

- سيدي عبد السلام، سيدي عبد السلام، لقد حدث ما يربك النظام في هذه البلاد!

سألها سيدي عبد السلام، مستغرباً:

- ماذا هناك؟ ماذا جرى على الأرض بينما أنا في السماء؟

- لقد اعتلت امرأة غاضبة نافورة ميدان الشهداء، وجلست تحدّق في العالم حولها كأنّما رأته ذا إحداثيات مختلفة أو غريبة. ظلّت تحدّق باندهاش من فوق، ولم تقل سوى بضع كلمات عن حاجتها إلى المال لإطعام أطفالها الجياع كيلا تضطر إلى بيع شرفها. فقدت المرأة صبرها من التردد على البنك لسحب نقودها. والبنك ليست فيه سيولة يا سيدي عبد السلام.

-حسنًا، ستتسبب تلك الإنسانة الطيّبة بحل مشكلة تزويد طرابلس بالمياه؟ لا بدّ من أنّ السماء ألهمتها هذه الفكرة، استجابة لدعاء ربع سكان ليبيا القاطنين في طرابلس. مشكلة المياه عجزت حكومات صرفت لها موازنات عن حلها.

أضافت ملائكة نقل الأخبار:

-لكن ذلك سيؤدي إلى تفتق عيون الماء والنوافير أينما قعدت السيدة من جديد. إنّ سماحتك تعرف ذلك.

-وما المشكلة في ذلك؟

-ستغرق طرابلس. ألا تعلم بأنّ قليلاً من المطر يجعل طرابلس تختفي. ليست هناك بنية تحتية يا سيادي.

-سينتهي ابتزاز عصابات الجنوب لطرابلسَ. فهي تغلق كل حين أنابيبَ المياه الواصلة إليها من هناك، وتغرق طرابلس في رائحة البول والبراز. إن الفيضان أرحم على طرابلس من العصابات.

-لكن مخيمات تاورغاء في طرابلس ستدفع الثمن، لأنّها أول ما سيغرق من هذه المدينة الرائعة.

-مشكلة تاورغاء المشتتة سيحلها الله. سأتفرَّغ لها بالدعاء بعد الانتهاء من مهمة إنقاذ شرف المواطنة عسيلة ومحاولة إقناع سيدة النافورة بالنزول عنها.

أطرق سيدي عبد السلام قليلاً، ثم أضاف:

-ستغدو هذه السيدة أيقونة طرابلسية تتغنّى بها طرابلس كلها، متى امتدت عروق بركتها إلى الضواحي وأبعد. ستغدو تمثال الغزالة الثاني.

طالبته الملائكة الفضولية بالشرح:

-اشرح لنا يا سيدي عبد السلام، كيف؟

-بما أنّ الأرض تسمّدت من المياه السوداء كما حدث لتاورغاء التي تحوّلت إلى مكبّ لمياه مصراتة السوداء، فقد آن الأوان لثورة زراعية حقيقية. إنها لَمعجزةٌ أن تعود المياه إلى النافورة بمجرد جلوس المرأة.

-لكنّ ظهور النافورة في مكان الجلوس أصبح مرتبطاً بظهور مصرف كذلك في الجهة نفسها، وبمواطنين يصطفّون وينامون أمامه.

حاول سيدي عبد السلام إقناع المرأة بالنزول عن النافورة والرجوع إلى بيتها وأطفالها. كان يريد أن يغسل وجهه. وجاءت، في هذه الأثناء، ملائكة من أقصى المدينة تسعى، طالبة منه الفرار:

-الهرب... الهرب يا سيدي عبد السلام، نبش الدواعش قبرك، والبحث جارٍ عنك.

هرب الوليّ الصالح، منذ تلك الإحداثية، ولم يعد إلى مرقده، وهكذا فقدت ليبيا آخر إنسان طيّب، وأصبحت مرتعاً للشياطين. وفي رواية أخرى، أنّ من أعطى تلك الإحداثية رجل اعتاد إعطاء الإحداثيات وليست الملائكة، لكنّ الليبيين يحبّون إضفاء لمسة ملائكية على واقعهم المؤلم دائماً.

الثياب

كان عبد السميع، طوال الطريق إلى المستشفى، يفكر من أين سيأتي بحقيبة التوليد التي تتطلبها ولادة طفله الجديد بينما هو لا يملك مالاً؟! تذكّر كلمات لطالما ردّدتها زوجته الثانية عند كل شجار بينهما:

- ما دام ما عندكش شيء، ونحن عايشين في الدرك الأسفل للحياة، ليش تجيب في عيال جدد؟ ارحمهم ووقّف.

وقف عبد السميع يلتقط أنفاسه أمام الصيدلية المقابلة للمستشفى، حيث تباع معدات التوليد التي استوردتها وزارة الصحة للمستشفى نفسه. وأخذ يهدّئ توتره الداخلي، بتسليم كامل بالقضاء والقدَر، معتمدًا على السماء في حلّ مشاكل الأرض، وإحداها أن توفّر الكساءَ للمواطن الجديد الوافد إلى مخيم تاورغاء في الحليس[1].

(١) قرية بحرية قرب بنغازي تضم مخيمًا لنازحي تاورغاء.

رفع عينيه إلى السماء:

- في الأقل ثياب يا ربّ، أو ملحفة يُلَفّ بها حتى نتدبَّر له ما يلبس. يا ربّ، يا ربّ.

وبينما كان الطفل ينزلق إلى الحياة باكياً في ظلام بنغازي الدامس من دون معدّات توليد ولباس، صرخت امرأة في طرابلس احتجاجاً على عدم وجود مال في البنك، وصرخت أخرى ضربها أحد عناصر الميليشيات المسيطرة على البنك. وصرخت مريم في سبها باكية في أحد مآتم المدينة طفلَها الذي لم يُدفن بعد، أكثر مما بكت العسكريين المئة الذين ذُبحوا في هجوم داعش على براك الشاطئ[1].

وصرخت الفنانة التشكيلية في طرابلس، بينما كانت تعلّق آخر لوحة في معرضها، وقد انفلت الدم منها فجأة وملأ المعرض بعرض آخر. وصرخ شاب اعترضته عصابة نباتية نهبت منه سيارته وهاتفه وأكياس الخُضَر التي يقلّها إلى بيته. وصرخت نسوة في ورشفانة التي تدكّها ميليشيات الردع للقبض على تجّار ممنوعات، وصرخ من شدة الألم تسعة مواطنين في طرابلس تناولوا خمرة مسمومة، توفِّيَ أحدهم، وأصيب اثنان بالعمى، وتاب واحد.

وصرخت فرس في طريق المطار أصيبت بعيار ناري في إطلاق نار متبادَل بين عناصر مسلَّحة. وصرخت من مشهد السكاكين حظيرة أغنام في غريان لا دخل لها في النزاع المسلح، لكنها ذُبحت عن آخرها في ردّ فعل انتقامي من صاحبها. وصرخت أم على ولدها وزوجها اللذين قُتلا بتفجير انتحاري في

(١) براك الشاطئ بلدة شهدت مجزرة بشعة نفذتها داعش.

بنغازي. وصرخت فتاة تلقّت صفعات عنيفة من شقيقها، لأنها ذهبت إلى حفل تخرّج تصدح فيه موسيقى وغناء. وصرخ أربعة وخمسون مهاجراً أفريقياً على ساحل زوارة انقلب بهم قارب التهريب بعد ساعة من الإقلاع. وصرخ تاورغي آخر في أحد مخيمات اللجوء، لأنه انتقل من المخيم القديم إلى مخيم جديد أسوأ.

ومع توالي الصرخات، توقف الطفل الجديد عن الصراخ بشكل مفاجئ ليسأل الممرضة، غاضباً:

-أين أنا؟

-في بنغازي.

-يعني ما زال مش مروحين لتاورغاء؟

-ما زال بكري عليك تدوي دوه أكبر من عمرك.
قالت الممرضة.

وقالت أمه التي تحتضر:

-عندما يأتي عبد السميع أعطيه وجَبات المستشفى التي خبأتها للأولاد تحت السرير. وقولي له آخر وصاياي بأن يدفنني إلى جوار أمي، وأن يهتم بالأولاد ويتدبر لهم لجوءاً إنسانيّاً، فمن العبث التفكير في العودة إلى تاورغاء.

نظر الكائن الجديد العاري إلى العالم من نافذة المستشفى، وسأل الممرضة:

- لماذا يصدأ الزجاج هنا؟

أجابته الممرضة:

- إنه وسَخ، وليس صدأً.

وكانت أمه في غرفة العناية تموت بسبب فقر الدم والنزف والخشية من ألا تصل الصرّة إلى أطفالها.

لم يتعارفا للأسف، لم يكن هناك وقت.

وصل عبد السميع لاهثاً، فسلمته الممرضة الوليد وثياب الراحلة، وتناست صرّة الوَجَبات، فذكَّرها بها الطفل.

- قوليله على الصرة تحت السرير، قوليله على الصرة قبل ترقد على السرير مَرا أخرى!

حمل عبد السميع الصرّة والطفل الذي توقف عن الصراخ نهائيّاً واستبدله بالصفير، وغادر به إلى المخيم ملفوفاً بوشاح أمه.

تدخلت الأقدار أخيراً، وحلّت المشكلة، وحصل الوافد الجديد إلى المخيم على ما يُلَفّ به، ولم يَخِب حُسن ظن عبد السميع بالله!

مواطن صالح للزراعة

حدث أول إنزال فضائيّ على كوكب الأرض، في العام ٢٠١٦، في بلدة العجيلات. كان سكانها كافة من أولاد سيدي بوعجيلة الذين اشتهرت بهم واشتهروا بها، والذين نذرهم سيدي بوعجيلة نفسه لقطع التابعة[١] والنحس وبتر الصلة مع سوء الحظ.

اشتهرت العجيلات بفعل ذلك عبر الأزمان الطبشورية والغبارية، وكذلك بمُواطنها نوري المقرعن، الذي ما فتئ يرقص أمام بيت القذافي في باب العزيزية، حاملاً لافتة تعلن أن: نوري المقرعن وأولاده مع القائد.

هبطت المخلوقات الفضائية ذات يوم، وسألت عنه، وأبدت اهتمامها به،

(١) التابعة والتوابع هي جني يتسلط على الإنسان فيسبب له المشاكل والعراقيل التي تعطل أمور حياته.

فحضوره الراقص أمام بيت القائد في العزيزية لن يذهب سدًى، إن لم يكن في كوكب ليبيا، ففي كواكب أخرى تعرف قيمة وجوده وتثمِّنه.

كانت العجيلات وادعة مساء الهبوط الأول فيها، وقد تناول الجميع فيها دشيشة بالقديد[1] وأووا إلى مراقدهم، وادعين، ورأوا أحلاماً سارّة منتظمة مقسَّمة بالتساوي بينهم، وما فاض منها ذهب إلى القرى المجاورة، زيادة للروابط الاجتماعية بينهم حين يجتمعون ويتبادلون سرد المواضيع نفسها.

في العادة، العجيلات بلدة وادعة تنام عند السادسة مساءً، ولا يوجد فيها أي أثر لثورة، أو لدولة، أو لشيء غير عجيلي.

ولِمَ لا ينامون قريري العيون؟ وهم من ساعد إخوتهم الليبيين على التخلص من النحس بقطع التابعة؟!

حتى وإن لم يكن لهم شأن بالتابعة السياسية التي لاحقت ليبيا منذ أمد بعيد، إلا أنّهم وضعوا قدراتهم الخارقة في خدمة الليبيين نظيرَ أربع بيضات، وعشرة دنانير وحزمة سجائر.

ويُعتقد أنّ الفضائيين، الذين شوهدوا في سماء العجيلات، كانت لهم علاقة بالقدرات الخارقة التي يملكها أولاد بوعجيلة في تحسين مستوى الحياة، وهم ربما أقرباء، وأولاد بوعجيلة ليسوا سوى نسختهم الأرضية التي ما كان لها أن تتحقق إلا بهم. وعليه، فلا مدعاة للتساؤل: لماذا هبطت المركبة في العجيلات، وليس في مكان آخر؟

---

(١) أكلة من المطبخ الليبي التقليدي.

ترجّل الجنرال حزقيال والضابط نازكازوكي وعددٌ من خبراء الفايسبوك، وبدأوا بتشمُّم الأخبار. بعد أيام ظهرت أعراض البصاصة على ركاب المركبة، ما عدا واحداً شكَّ الجميع في أنّ لديه كريات دم في عروقه وليس ثقوباً سوداء. وسيكون فضحه مسألة هينة للغاية عن طريق طعنه عدة طعنات. فإن سال الدم منه ومات فهو مندس، وإن لم يَسِل منه الدم ومات فهو نقيٌّ، وليس مندساً.

قال الضابط نازكازوكي:

-سيدي حزقيال، هناك جرافة محملة بالسلاح والألغام تغادر ميناء مصراتة في اتجاه بنغازي. هل نوقفها، كي تتوقف الحرب الأهلية؟

-كلا، دعوها. فخّار يكسّر بعضه. ما جئنا هنا لفض نزاعاتهم.

قال عريف فضائي:

-سيدي حزقيال، سيدي حزقيال، هناك هجوم من كتيبة العقيد صلاح بادي على مطار طرابلس، هل نبتر له ذيله بمنشار الذيول الهيدروليك، أم بالمنشار القنصلي؟

-كلا... هذا الكلب، ليس من اختصاصنا.

-سيدي حزقيال، القائد الأمازيغي نوري بوسهمين، رئيس المؤتمر الوطني، أعطى أوامره بغزو الحقول النفطية، وقد أطلق أول صاروخ على خزان السدرة النفطي من تحت رأسه. هل نوقفه لئلا يحترق البترول؟

– أرسلوا إليه كتيبة هيثم التاجوري تعترض لقاءاته الغرامية، فهذا النوري بوسهمين يعترض مسارات بحثنا عن نوري المقرعن العجيلي، ومن الأفضل توقيفه.

ثم ناداه أحدهم:

– سيدي حزقيال... الشاي جاهز على الطريقة الدرناوية.

– ليشرب منه الجميع حتى تنشط الغدد الفضولية وتتحفز قرون الاستشعار الرأسية والأفقية. فأهل درنة أدرى بشعاب كل شيء[١].

ترك حزقيال الأجهزة الكثيرة أمامه في المركبة، وسأل فريق العمل الخارجي:

– أما من أخبار عن نوري المقرعن؟

أجابت مخلوقة فضائية بوجه سداسي:

– عثرنا على اللوحة التي رفعها وهو يرقص في باب العزيزية طوالَ ثمانية أشهر، كما عثرنا كذلك على براز قديم له.

– حلّلوه فقد تدلنا نوعية الطعام على المادة الراقصة في نسغه.

فعلنا يا سيدي، وقد تبيَّن لنا أنه الطعام نفسه الذي كانت قوات القذافي تُطعمه كل ليلة للراقصين في محيطها، كي توهم العالم بأن كل شيء على ما

(١) يشتهر أهل درنة بالفضول.

يرام وما من ثورة في بلد الغليان. للأسف، البراز قديم ولم نستطع تحديد مكان المقرعن الحالي بوساطته.

خبط حزقيال يده على الطاولة خبطَ عشواء حتى تدحرج كوب الشاي الدرناوي وسقط على زرّ موزع الإشعاع المركزي النفاث، فأطلقت أجهزة الرصد إنذارات صوتية وضوئية، تدلّ على وجود عنصر غير فضائي قريب. سارع حزقيال إلى الأجهزة كي لا ترسل إشارات ورسائل فضول يتلقّفها الفايسبوكيون وخبراؤهم، ويتنافسون على تفسيرها وقراءة دلالاتها، وهو ما يعني المزيد من الوقوع في الفضول المجانب للحقيقة.

غير أنّ فارق السرعة بين الأرض والفضاء جعل الخطأ يصل قبل إصلاحه، فالخطأ الأرضي دائماً أسرع من الإصلاح الفضائي. لذلك، كان على الجنرال حزقيال القيام بتصحيح أرضي يتطلب منه تدخلاً عابراً للقارات، فطلب عقد اجتماع طارئ لرواد المركبة لمعالجة المشكلة.

بحث الجنرال سازوكي سريعاً، ووجد ضالته في كوكب مصراتة الوادع، حيث تتوفّر سبل الحياة والرفاهية قياساً بالكواكب المنطفئة المحيطة به. راقبه على شاشات الرصد منذ هبوطهم في العجيلات، فرأى الضوء يخرج منه، وهو دليل على أنه لا يوجد دخان من غير نار، ولا ضوء من غير كهرباء، ولا جرافات سلاح من غير ممولين. لم يعانِ كوكب مصراتة ما عانته كواكب المجرة التابع لها. لاحظ الضابط سازوكي خروج جرافات الذخيرة والعتاد بانتظام من كوكب مصراتة، قاصدة بنغازي، لاستكمال فصول الحرب الأهلية. ولاحظ القائد حزقيال أنّ هناك تجاهلاً عامّاً

يتساوى فيه جهلاء الكوكب ومثقفوه، عن تمويله الحرب الأهلية في ليبيا، على الرغم من أنّ كوكب مصراتة يقع في سلسلة أصغر الكواكب المؤلِّفة لكوكب ليبيا العملاق.

أمر الجنرال حزقيال أتباعه بقطع التابعة لمثقفي كوكب مصراتة وعقلائه، ليروا ما يفعله صمتهم المخزي بالحياة ومستقبل المجموعة البشرية التابعين لها. لم يكن راغباً في التدخل، لكنه اضطر إلى القيام بهذا التصحيح، فهدفه من المجيء إلى كوكب ليبيا ليس هُم، وإنما البحث عن المواطن نوري المقرعن وأولاده لنقلهم فوراً إلى المريخ واستنساخ شعب منهم هناك. وبالتالي، فإن وظيفة الجنرال حزقيال في العجيلات ليست كوظيفة الجنرال باولو روسي الإيطالي في مصراتة، ومع ذلك قد تضطره ظروف الكوكب الليبي إلى أن يعلن العجيلات مركزاً للكون ويرفع علمهم عليها. ثم يذهب لتطهير مصراتة من الطليان. وهنا لا مفر من نشوب حرب كونية كبرى بين كوكب العجيلات وكوكب مصراتة، ستجر إليها الكواكب الدائرة في فلك كوكب مصراتة والممولة له بالمقاتلين والذخيرة والكسكسي، وهو ما سيجعل كفة كوكب العجيلات ضعيفة نظراً إلى سيطرة خصومهم على الكسكاس[١] الكبير، وهو السلاح الأفتك في المعركة. ومهما كانت نتيجة المعركة، فإنه سيترتب عن اشتعالها ظهور المواطن نوري المقرعن، عاجلاً أم آجلاً، للرقص مع أحد أطراف الصراع ضد الآخر. حينئذٍ، ستكون فرصة حزقيال التاريخية مؤاتية للقبض عليه ونقله فوراً إلى الفضاء الخارجي وزراعته هناك.

---

(١) وعاء طبخ الكسكسي.

إن هذا المخطط يضمن القبض على نوري المقرعن، في حال لم يعثروا على غائط جديد له يدلهم على مخبئه، وقد يصبح الأمر يسيراً إذا ما وجدوا من يشي به في مقابل خمسة قروش.

يومُ الجمعة في العجيلات يوافق الثلاثاءَ لدى الكائنات الفضائية:

كان حزقيال يقوم بجولة تفقدية في ربوع العجيلات المخضرة، ويتعرَّف إلى مكوناتها، محاولاً اكتساب حاسة الشم بعد أن ثقب أنفه بمنشار الحفر الهيدروليك. كان يسعى للحصول على عينة متطابقة من فضلات نوري المقرعن لدراسة خصائصها والاستفادة من نتائجها لمصلحة بحوث الحياة في الفضاء، حين أُخذ من الخلف ووقع رهينة لصِبْية سيدي بوعجيلة الذين يقوم بتدريبهم يوم الجمعة على الطريقة المثلى لقطع التابعة. كانوا حليقي الرؤوس وفي أيديهم بيض وخيوط، يرددون وراء شيخهم التمائمَ المصاحبة لعمليةَ طرد الأرواح الشريرة من حظ الإنسان المؤمن في ليبيا.

وقعت أعينهم على الجنرال حزقيال، وهو يلتقط كتلة من الفضلات المتحجِّرة ويقرِّبها من عينه ليفحص مكوناتها، لعلها تعود إلى نوري المقرعن. اعتقد الأولاد أنه روح من جملة أرواح الشر الذي يحيق بابن آدم ويعيق مسار حياته السلس جداً في ليبيا.

صاح أول صِبْية بوعجيلة لآخرهم، مشيراً إلى الجنرال حزقيال، فترك الأولاد معلمهم وجروا ناحيته فجرى الجنرال حزقيال هو الآخر ما إن رآهم يجرون.

وفي لحظات، انقسم الأولاد فريقين، نصف ذهب عن يمين الجنرال والآخر عن يساره، ليطوّقوه في دائرة قطرها ٢٠ سنتيمتراً، ويقبضوا عليه ويُستَجوب:

- هل أنت من كوكب مصراتة؟

- هل أنت من كوكب غريان؟

- هل أنت من كوكب صبراتة؟

- هل أنت من كوكب زوارة؟

- هل أنت من الخمس، مسلاتة، زليتن، قلْ يا كلب؟

وكانت إجابته «لا» مسوِّغاً لتعذيبه. وانتشر في البلدة أنه تم القبض على الشيطان الرجيم نفسه الذي يوسوس لليبيين بالشرّ، ويقلب جنتهم جحيماً، فاجتمع حكماء المنطقة مع مشايخها، الذين هم أنفسهم حكماؤها، وقرروا عدم المساس بالكيان المادي للجنرال حزقيال كيلا يتبدَّد منه الشر فيتبعثر وينتشر بينهم، ويفسد الخير المنتشر في ليبيا. واستتب الرأي، في نهاية المحادثات، على ضرورة قطع التابعة الجماعية لهذا الكائن الغريب. فتنادوا من كل حدب وصوب في حفل كبير وشرعوا يقطعون له التابعة.

كان حزقيال يتعذب بالطقوس التي تُجرى عليه، ويحترق داخليّاً بمهانة الوقوع في الأسر وانتهاء حياته المهنية بفشل رحلة المسبار للبحث عن نوري المقرعن وأولاده.

ثم لمح، فجأة، المواطنَ نوري المقرعن بين من جلبوا خيوط الصوف الأصلية وجاؤوا لحفل قطع التابعة. حاول التملص من قيوده والقفز عليه، لكنهم تمكنوا منه وقطعوا له شيئاً آخر. تصاعد من جسده بخار نفّاث نحو السماء يشبه دخان الشحم على النار، ثم انكمش صاغراً. تغير حجمه ولونه وصوته وأصبح أول مخلوق فضائي يتم تحويله إلى إنسان طبيعيّ في العجيلات الليبية، وقد سجلت براءة تحويله لهذه البلدة الطيّبة المشهورة بمقاومة الشر والنحس.

أصبح المواطن حزقيال المقرعن، في وقتنا الحاضر، يجيد الرقص وقطع التابعة وطبخ الكسكسي بشكل لم يسبق له مثيل، حتى إنه يطمح لأن يصبح أول رائد فضاء في مجال قطع التابعة لسكان الفضاء الخارجي. ويقول إنّ رسالته هي رسم طريق الانعتاق النهائي للفضائيين، وتحويلهم إلى بشر.

١٣

حدث عائلي جدّاً

تمرّ، اليوم، الذكرى الخامسة والعشرون على أم محمد خبزة وهي حزينة، وكي تعرفوا لماذا ما زالت تجر حزنها القديم، فيجب أن نحكي حكاية الابن الوحيد لعمتها عايدة الذي بَتَر إصبعه السبابة قصداً ليتخلص من الخدمة العسكرية، لأن بوعجيلة اعتقد، بناءً على ما لديه من معلومات، أنّ البندقية تتطلّب الضغط على الزناد بإصبع السبابة، وفي حال عدم استطاعته استخدام بندقية الكلاشينكوف فسوف يحصل على إعفاء وتصدر له بطاقة خاصة يحملها في جيب جلابيته، ويبرزها كلما مر من بوابة، أو كلما دخل مقرّاً حكومياً لأمر ما، والأهم ألا يتم تجنيده وإرساله إلى الحرب في تشاد.

لكن ما حدث وسبّب الحزن لعائلة أم محمد خبزة أنّ بوعجيلة لم يُعفَ من الخدمة العسكرية، بل، على العكس، فقد أُرسِل إلى سلاح المدفعية.

«جرحك يبدو طرياً»، قال له الضابط.

- مرّت على يدي ماكينة النجارة من أسبوعين.

- كان لازم تحط يدك في زيت زيتون ساخن.

- معندناش زيت زيتون. الجمعية جاباته وسرقاته، نحن من زمان نطيبوا[١] بزيت الوردة.

عاد بوعجيلة ببطاقة أخرى بدلاً من بطاقة الإعفاء، وكانت الحاجّة عايدة تنتظر قدومه من الشارع السابع، فخيّب أملها وأطل من الشارع الرابع، وتحديداً بالقرب من كوشة الزلاوي.

هكذا، وُلد حزن العمة عايدة الذي انتقل بالعدوى إلى بنات شقيقها الوحيد، واللاتي تربطهن بها علاقة عائلية وطيدة. كتمت الحاجّة عايدة زغرودتها احتفالاً بقدوم بوعجيلة، فهو لم يعد ببطاقة الإعفاء للأسف، وإنما بتوصية بإعادة التوجيه.

سألته الحاجّة بريق جافّ: «شنو صار يا وليدي؟».

كانت تتساءل حتى وإن عطست الكلام عطساً.

تأمل بوعجيلة اللّفافة الطبية حول يده وردّ: «إصبع واحدة ما جابتش الدورة[٢]. حولوني لإدارة التوجيه المعنوي والعقائدي في المعسكر، وبعد كلام واجد والباب مسكر طلع واحد وجهه زي الضفدع وقالي امشِ لسلاح المدفعية».

(١) يقصد نطبخ بزيت زهرة عباد الشمس وهو زيت سيئ السمعة في المائدة الليبية.

(٢) لم يحقق المطلوب.

-أخفّ شيء ضرب المدافع.

عقبت والدته.

واظب بوعجيلة على تدريبات الخدمة الإلزامية، واعتاد فقدان أكثر أصابعه أهمية، فلم يعد يتفقدها بأصابعه الأخرى، كما حقق تقدماً في ضرب المدافع حتى بات مؤهلاً لحرب تخوضها الدولة بالمدافع، وبه فقط.

بم... كرفاخ... بم... كرفاخ... هزت البحر وجعلت الأسماك تقفز هاربةً إلى البنكينه، بما في ذلك سمكة الأرنب السامة.

ذات يوم، وجد بوعجيلة والدته تنتظره عند الباب، حزينة، وعلى وجهها آثار دموع مختلطة بكحل. هبّ إليها، متسائلاً:

-من مات؟

وكان يستعمل هذا الاختصار لدرايته بشكل دموع أمه عندما يفقد رحمها أحد أقربائه. أجابت أمه، والعبرات تخنق صوتها:

-راجل بنت خالك قتلاته الحكومة اليوم هو وجماعته في مركب صيد.

-كيف عرفتوا؟ من خبركم؟

-طلقوا عليهم بومبا شالتهم كلهم[1].

النشرة الموسمية

تذكّر الجالي أفراد عائلته بشوق كبير، في أول عيد أضحى له بعيداً عن ليبيا، حتى إنّ صورتهم لم تفارق خياله وحضرت له ملونة بدقة ٨ آلاف بيكسل، ظهر فيها من خلفهم كبشُ العيد بدقة ١٠ آلاف بيكسل، وبعينيه الخضراوين اللتين ذكّرتاه بعيني عمته علجية.

كان الكبش، بحسب التصنيف التجاري، من نوع شاوش[1] بقرون فاخرة حرّكت حنين الجالي إلى المرحلة الثانوية حين كان مغرماً بالاختراعات وفكّر في اختراع شيء من القرون التي لم تنتفع منها الحضارة الليبية في شيء منذ افتداء الملائكة سيدنا إسماعيل بكبش حنيذ. فمنذ ذلك الحين وحتى الألفية الثالثة، ظل استعمالها محدوداً في شيئين فقط: العزف على المقرونة[2] والتصدي

---

(١) خروف بأربعة قرون.

(٢) ناي ذو أنبوبتين وكيس جلدي

للحسد والعين. أما المقرونة فحالها اليوم لا تسُرّ ولا تُطرب، بعد أن حُرِّم صوتها مع تحريم الموسيقى. وأما الحسد فلم يعد يكسره حتى قرن الثور، صار يذهب مباشرة إلى الهدف وينهيه من دون مقاومة.

لقد تعافى من الغُشم وأصبح حسداً ذكيّاً.

مع ذلك، ليست قرون الكبش موضع اهتمام الجالي حتى وإن تذكر وطنه وأهله بسببها. أراد تذكّر أشياء أكثر رهافة ولطفاً تحرّك انفعالاته تجاه ليبيا كلها، وليس تجاه مسقط رأسه فقط، لأنه إن فكّر في مسقط رأسه فقط فسيتذكّر لا محالة مصراتة التي لا تكفّ عن رميه بجرافات السلاح والألغام والإرهابيين.

وهو لا يرغب، في قرارة نفسه، في تذكّرها، ولاسيما أنّه أقام بروما بجوار المستشفى الأوروبي، المختص بعلاج جرحى مصراتة، فكان يوميّاً يعيش جرائمها، ثم عندما غيّر مكان الدراسة من روما إلى القاهرة، سكن بجوار مستشفى يتكدّس فيه جرحى ومبتورو الأطراف من شرق ليبيا، الذين اعتدت عليهم مصراتة. فكان يوميّاً يرى ضحاياها.

هكذا، عاش الجالي التجربة المؤلمة للحنين، مذ غادر ليبيا ولم يعد إليها بعد آخر عيد أضحى كان فيه الكبش معهم، وغادرتهم بعده العمة علجية مباشرة.

تنهَّد الجالي بحزن، قائلاً في نفسه:

-اليوم هو عيد الأضحى في بنغازي. مؤكد أنّ كل شيء هناك ثقيل جداً.

كان يشعر بشيء من الضِّيق لأن عائلته لم تتمكن من شراء الأضحية، فهناك أزمة سيولة في المصارف. والدته بالطبع حزينة ويتوقّع أن يسمع منها «عيد عدوك عمرها ما صارتلنا»، في أول مكالمة، ويتوقع أن يكون إخوته في غاية الحرج والشعور بالخزي الاقتصادي من جيوبهم الفارغة، ومن مقارنتهم بابن الجيران، محمد خبزة، الذي لم يذهب إلى المدرسة مثلهم ولم تتمزّق أحذيته على الأرصفة المؤدية إليها. وها هو اليوم أفضل حالاً منهم.

بدأ محمد خبزة مشروعه من الصفر، فقيراً معدَماً يضع كيساً على ظهره، ويذرع الطريق طوال نهاره مفتشاً القمامة تلو القمامة بحثاً عن الخبز اليابس، حتى تمكّن من جمع رأسمال صغير حوّل به سطح بيتهم إلى ساحة لتجفيف الخبز وتكسيره. ثم انطلقت أحلامه بالبيع من هناك وتوسعت تجارته، واليوم هو أفضل حالاً ممن سخروا منه، وما عاد يجمع ولا يكسر. فقد وظّف لديه عدداً من أولاد الشوارع، وتفرغ هو للإدارة. بات نظيفاً وتغيّرت ملامحه. ودفع لوالدته تكاليف رحلة الحج والعمرة. واشترى سيارة «كيا سيراتو» مستعملة، وليس غريباً أن يترشح لانتخابات مجلس النواب في الدورة المقبلة.

رأى أشقاء الجالي محمد خبزة يُنزل من سيارته كبشاً حَنيذاً، قدَّروا عمره من طول قرنيه، فقال عبد الصمد: كبش حايل[١].

وقال حمد: ثلوثي[٢].

---

(١) مرّ عليه الحول.

(٢) عمره من سبعة إلى ثمان أشهر.

ولّما فاحت رائحة الشواء فوق السطوح، قالت أم الجالي التي لم ترَ الكبش لكن شمت ريحه: إنه ثني.

أما آخر شخص تذكّره الجالي يوم العيد، بعد أن تذكّر أقرباءه وجيرانه وبنات عمّ جيرانه المقيمات بقرية جردينا، فهو شقيقه الأصغر الذي تغفل ذاكرته عن تذكره دائماً في الوقت المناسب، وتغص في تصوره بنظارته الطبية السميكة؛ الأخ الذي حدفته المقادير عليهم، الغريب الأطوار منذ أن ظل صامتاً شهرين، ثم نطق، فقال:

«الخط المستقيم أسوأ المتاهات».

كان يعيش في متاهة بالنسبة إلى أهله، وربما حتى بالنسبة إلى قاطني جردينا.

لم يقل الجالي في ذهنه شيئاً يُذكر عندما مرّ ذلك الأخ الغريب بذاكرته نهار العيد، وجرح مشهدُ نظارته السميكة مشاعرَه المخدوشة أساساً.

الموقف فوق سطوح الجيران:

كان محمد خبزة جالساً على كرسي لدائن وأمامه عدة الشواء:

-كروه من قرونه يا فروخ بسرعة الصلاة كملت[1].

قال لشقيقه الصغير الذي أجابه: الكبش راقد.

أرسل محمد خبزة كلمة شوارعية لا تتناسب وحرمة العيد، اخترقت أذني

---

(١) اسحبوه من قرنيه بعد تمام صلاة العيد لذبحه.

الكبش الممدَّد بينهم فزاد طوله سنتمترين:

- تي يا كلوط عليش مديورات القرون[١].

قال زوج أخته:

- الكبش مفرش عالأرض ما يبيش يسيبها.

عقّب محمد:

- والله ما منبطح إلا أنت من نهار ناسبناك.

وهبّت أخت محمد زوجة الكلوط قائلة:

- باتي[٢] الله يرحمه كان يوكل في أضحية العيد قبل يذبحها.

- لاقيين ما ناكلوا نحن؟! اسكتي وامشي دوري القرمة الكبيرة وين دستها أمك[٣].

في النهاية، ذبح الكبش نائماً أو ميتاً، الله أعلم، وهكذا لم ير أحدٌ شكل عينيه، أكستنائيتين كانتا أم خضراوين، متوهجتين أم منطفئتين؟ أم أنهما كعيني الكلوط كبيرتان وفارغتان؟

عندما شوت زوجة الكلوط رأس الكبش كانت عيناه مغلقتين، ولم تُفلح

(١) لأي شيء خلقت القرون؟

(٢) أبي.

(٣) ابحثي عن خشبة تقطيع اللحم أين خبأتها أمك.

السكين في فتحهما، وكانت قوائمه على النار يابسة، وفيها جزء من تراب الوطن وطلاء السطوح. أمّا أم الجالي فقد فاقت توقعاتها الواقع فعلاً بسبب الحرمان من الأضحية. لذلك، حين اتصل بها الجالي من القاهرة للمعايدة، قالت له الكثير عن مشاعرها تجاه الخراف والنعاج أكثر مما قالت عن الأعياد، وهو ما جعل الجالي يشعر بأن أكثر الأعياد واقعيةً هو الذي فاته أن يحضره مع جيرانه!

جدير بالذكر أنّ الكبش، بحسب التراب العالق بصوفه، لم يكن قد نشأ أو ترعرع في إجدابيا على الإطلاق.

أي أنّه لم يمر في تجربة الشعور بالغربة التي ستترك مرارتها في لحمه وعظمه.

١٥

المدينة الدائخة

طرقتُ الباب، ودخلت مكتب العقيد حميد، المسؤول عن البحث الجنائي في بنغازي. كان رجلاً ممتلئاً، كثَّ اللحية، صارم التقاطيع، ويلتزم بوضع نظّارة شمسية على عينيه لا تجعل مهابته تقلّ ذرة حتى مع حلول المساء وانتفاء الحاجة إلى النظّارة. نظر إليّ، متمعناً مستغرباً كينونتي، وسألني كما توقعت من رجل أمن:

– من أنت؟ وشنو جاي تبي؟ مش شايف كمّ الملفات والقضايا اللي قدامي؟!

– بلى، أنا أرى كل شيء منذ الاعتداء على حياتي. أنا جثة مواطن ليبي الأصل عُثر عليها مرمية في شارع الزيت.

تمعّنني العقيد جيداً، ثم سألني:

– ييييه يا ما فيه شارع الزيت من جثث. ما تكونش أنت الأستاذ فرج الجحاوي؟

– كلا.

- أما لا ولده توفيق الجحاوي؟

- كلا، لكن لمَ هذان الاسمان تحديداً؟

- لأن الأستاذ فرج هو الوحيد عندنا اللي يتكلم لغة عربية فصحى، وهو واحد من مؤسسي جمعية أصدقاء اللغة العربية في بنغازي. اعتقدت ممكن تكون هو أو ولده توفيق، غير وأخذ اللغة بالعدوى.

- لا أدري حقيقة، عليكم إثبات من أنا. أنا فقدت اسمي بعد مقتلي وأريد استرجاعه الآن، من المخزي لي كميت أن يتم تجريدي من هويتي وأُعامَل كجثة مجهولة. أنا ليبي.

قال العقيد بنرفزة:

- ملفّك ما زال ما وصلنا فيه.

- أريد معرفة الجناة الذين قتلوني: سيارة الجيب السوداء التي لاحقتني في الظلام، والأشخاص الأربعة الذين ترجلوا منها وخطفوني واقتادوني إلى جهة مجهولة، ثم قاموا بتعذيبي قبل أن يقتلوني ويمثِّلوا بجثتي.

- ما عرفتش حد منهم؟

- للأسف يا سيادة العقيد، لم تكن معي النظّارة الشمسية كهذه التي تساعدك الآن على تفحص المعلومات وكشف الحقائق.

- يعني قعدت معاهم وعذبوك وبهدلوك، كل هالفترة ما تعرفتش عليهم؟! نلقانك مَضحكة.

-نعم... أنا مَضحكة، وإلّا كيف يحدث لي هذا؟!

أخذ العقيد حميد يمسِّد لحيته الكثة علامة على أنه يفكر.

-لكن، بحسب التحريات اللي عندي، أنت ميّت من العام ١٩٨٨، يعني قبل الثورة بواجد. يعني قاتلك القذافي، فشنو اللي جابك إلى شارع الزيت؟

-لهذا، أنا مَضحكة. صحيح أنّ شارع الزيت افتتحته الثورة الجديدة لا الثورة القديمة، تحديداً في عهد الحاكم العسكري وعهدكم المبارك، لكن الموت أقدم من الثورة الجديدة في هذه البلاد، وهو يتجدّد فيها في كل آن. وها قد وقع عليّ مرة ثانية وأنا أريد متابعة أمر «روحي»، فروحي تهمني.

تنهَّد العقيد زافراً عبارة «روووووحي، آه يا رررروحي».

ثم استوى على الكرسي، قائلاً:

-راجعني الأسبوع الجاي. ممكن تكون تحرياتنا توصلت للقتلة.

-ولماذا الأسبوع المقبل؟

-ما تشوفش فيَّ مشغول بضبط أمن المدينة على أعياد الميلاد؟!

-وهل يهدّد العيد، لا سمح الله، أهالي المدينة كما يهدّدهم شارع الزيت ومشروع الصفصفة؟

- نعم، تهدّد الاحتفالات المسيحية أخلاق السكان وعاداتنا وتقاليدنا، وأنا مسؤوليتي حفظ الأمن.

قلت له:

- «حفظ الله ليبيا والبنكينه»، وغادرت.

رأيت، في طريقي إلى الخارج، في غرفة الانتظار، عدداً من الجثث المكبَّلة الأيدي، وعليها آثار تعذيب. أُعدمت حديثاً وأُلقيت في شارع الزيت، كانت تراجع دورياً المؤسسة الأمنية لمعرفة آخر مستجدات التحقيق في مصرعها.

إحدى الجثث كانت نبيلة، ويبدو أنها تعرفت إليّ لكنني لم أعرفها:

- أهلاً بك أستاذ، لم أتوقع أن آراك هنا، يا محاسن الصدف. كيف حالكم؟

- الحمد لله، أفضل بعد مقتلي. تخلَّصت من الفلس والديون والدفع المسبق وحياة الطوابير، وأزمات الحياة اليومية.

- هل أنت من دفعة مشروع الصفصفة، أم من دفعة الأبيار؟

- أقدم، لماذا تسأل؟

- كي تحمد الله لأنك لست من دفعة الأبيار. يا رجل هناك المعاملة أسوأ من أي مكان في العالم.

تدخلت، حينها، جثة شاب يبدو أنه اغتيل برشاش لأن قفصه الصدري كله كان مثقوباً مثل كسكاس أصلي:

- أنا أتردد إلى هنا منذ سنوات، تغير العقداء كثيراً، وتوالدت لجان التحقيق، وتناسلت من بعضها بعضاً من دون فائدة.

أغرى حديثنا العذب جثة أخرى خرجت عن صمتها، وقالت:

- ربما هو نقص الإمكانات.

- إنّهم لا يكفّون عن شراء سيارات الدفع الرباعي الغالية الثمن للمؤسسة، كأنّ ذلك سيؤدي إلى كشف حقيقة مصرعنا ويحلّ مشكلة انعدام الأمن في هذه المدينة المفجوعة.

- العقيد نفسه لديه موكب من السيارات الأمنية الفاخرة التي لا تراها إلا في فيلم مافيا أو أكشن.

قالت جثة تتكئ على رأسها:

- ومع ذلك، لم يتقدم التحقيق خطوة، ولم يتم تركيب كاميرات مراقبة ولا بوابات إلكترونية لبنغازي... غريب!

جاء الحراس الشخصيون للعقيد وطلبوا منا المغادرة على وجه السرعة. ارتبكنا ولم نستوعب الأمر الطارئ. تساءل بعضنا «ماذا. ماذا هناك؟».

ادّعى كل عسكري من العسكريين أنه الوحيد الذي لديه الخبر اليقين، وهكذا صار لدينا تسع روايات تؤكد نفسها ويناقض بعضها بعضاً في الوقت نفسه، لكن ليس من حقك تكذيب أيٍّ منها.

غادر العقيد مكتبه على عجل، وقرقعة خطوِه على الأرض بحذائه الرسمي تشبه دقَّ هاون أمي تركية عندما تطحن جوز الطيب.

إنها مسألة أمنية.

أسرعت الجثث إلى النافذة المطلة على باحة المقر تستطلع الأمر. استقلّ العقيد سيارته العسكرية المهيبة بكل حزم وتحرك رتله بجموع حاشيته، ملعلعاً.

توجّس بعضنا من أن يكون أحدهم قد خالف القانون ومات موتاً طبيعيّاً، لا قدر الله، أو فتح شارعاً جديداً للجثث من دون إذن الحاكم العسكري. من خبرتنا في موت الشوارع، خمّنا ذلك. غير أنه توجد إشاعة تقول إنّ هناك جثة تطير في سماء بنغازي استطاعت التعرف إلى قاتلها من دون الاستعانة بالأمن الداخلي وخدمات العقيد حميد، لذا يجب توقيفها قبل أن تستشري ظاهرة فلتان الجثث وتعرُّفها إلى القتلة.

سألت إحدى الجثث صديقتها:

- ما رأيك في أن نطير؟

- أخشى الرصاصَ العشوائي.

- إذا دخلت السجن أمنت من الموت بالتفجيرات أو الألغام، لكنك ستموت بأدوات أخرى ولن تحتاج إلى أن تتعرف إلى قاتلك، فالدولة حين تضعك في كيس الموتى تضع ختمها عليك. لقد متَّ من التعذيب، أليس كذلك؟

- بلى.

-إذاً، لن تحتاج إلى أن تطير.

جاء عسكري، ونادى في مجتمع الجثث:

-عودوا إلى المقبرة، المؤسسة الأمنية اليوم تعمل خارج المكاتب.

-ومتى يعود العقيد حميد؟

سألت جثة، متحمسة لمعرفة مصيرها. أجاب العسكري:

-العقيد لن يعود اليوم، لديه عملية حرق أكبر كمية حشيش في الميناء، سيشرف عليها بنفسه.

عانقت الجثث بعضها البعض سعيدة:

-هيه، هيه، هيه... سنشمّ رائحة الحشيش مجاناً... فيستا... فيستا.

ما عدا جثة عجوز وقورة لاذت بالصمت.

«لكم تعوَّدت الحشيش المجاني، شكراً للدولة، سأطير إلى الميناء الآن».

ازدحمت السماء بالناس حتى إنّ عددهم في الأعلى كان أكثر من عددهم على الأرض. وكانت العجائز أسرع خلق الله طيراناً.

١٦

طائرة من دون طيار... خذوا حذركم

وقف محمد خبزة ينتظر رجوع الأولاد بأكياس الخبز اليابس، ليزن كل كيس وينقد جامعه المبلغ المستحق، ويسلم أخته وأمه الخبزَ كي تدقانه فوق السطح.

كان الجيران يشتكون من أصوات القواديم قبل الحرب، لكن الحمد لله، لم يعد أحدٌ يشتكي بعد الحرب من الضوضاء، ولا من الأصوات المزعجة.

الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً ومحمد خبزة بالكاد صحا وتناول الشاي بالحليب، ثم ذهب بفنجان القهوة والسيجار إلى ناصية الشارع.

دخن عدداً من سجائر المارلبورو ريثما يمتصّ شعره الجِلَ والكريم، وشيئاً من الطاقة الشمسية، وتنمو في رأسه بعض الأفكار الخلّاقة. قلب جواله استطلاعاً لأخبار ليبيا، وصعود الدولار ونزوله، الذي يغيّر سعر صرفه سعر شوال الخبز المدقوق. كذلك استطلع أخبار غزوات الميليشيات

التي يدرس تكتيكاتها منذ فترة ويستفيد من تحركاتها الاقتصادية ونشرها الفوضى كوقت مثالي للكسب.

تثقف محمد خبزة نسبياً بعد فتح ثلاثة حسابات على الفايسبوك: حساب للسبّ والشتم وعالم ما تحت السّرّة، وحساب تجاري للبيع والشراء والسوق السوداء، وحساب أنيق يربطه بالطبقة السياسية والمثقفة في ليبيا والعالم. وللفايسبوك يدين محمد بما تعلمه أكثر مما يدين للمدرسة التي يستند إلى سياجها الآن.

يدخل صفحة أحد نُخَب بنغازي، فيجد فيها:

«حمد بورقيد زميل إذاعي قديم لديه محلّ الهلال للصيد البحري أمام القنصلية الإيطالية. مثقف نازح مكافح قاد خيمة النازحين أمام مبنى التعليم. مرض ولم يعد إلى بيته. ذهب إلى مصر، واتصلت به بعد عودته أمس الأول فلم يردّ. كان موعد جرعة الكيماوي، اليوم بلغني نبأ وفاته للأسف! إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

لا بدَّ من أن تصدر من محمد خبزة تعزية، كتبها فوراً، ووضع أيقونة الحزن متمنياً طول العمر للبنكينه.

تصفّح الصفحات المؤيدة للجيش والصفحات المؤيدة للميليشيات. ولا بدَّ لمحمد خبزة من أن ينتظر حتى يتضح لمن تكون الغلبة، ثم يعرب عن تأييده للغالب.

أما الصفحات الدينية فلا بدَّ أن يباركها من أجل بقائه في الملة، فالمرء الذي

لا يظهر إيمانه وتدينه يصبح محط شبهات من أظهروا إيمانهم وتدينهم.

صفحة المطربة الشعبية فاطمة الحمصة تنشر خبر القبض عليها، بتهمة الغناء في الأفراح. في الإمكان الآن أن يكتب التعليق الذي يريد، فالأمر يتعلق بامرأة تغنّي.

صفحة عبد السلام الخرية:

«طائرة بلا طيار تصوِّر بنغازي في مسح استخباراتي أميركي - إنكليزي. مشاركة لكل الأصدقاء. تجب التوعية. بنغازي حبُّوها وغيِّرو اعليها يا بناغزة».

تحرّك الدم في عروقه، فهو يحب بنغازي، وإذا ما تعلق الأمر بالغيرة أصبح حبها أكبر من حب جمع الخبز من قمامتها لديه.

فجأة، حلّق طائراً نحو منزلهم. صعد الدرجات العشرين الشرعية طيراناً، أمّا العشر التي أُضيفَت إلى السلم من دون ترخيص فقد تقطّعت أنفاسه عندها. عليه الانتباه لَميلانها ولكُتل الإسمنت الناتئة منها كي لا يتعثر وتأتي وقعته على أنفه، كما حدث لشقيقه الذي صرف على علاجه أكثر مما صُرِف على بناء الدرجات المخالفة.

نادت والدته ما إن سمعت بخطوات المقبل:

- هيه يا ولد، ردّ بالك من العتب، راهن مدرزمات[1].

---

(١) ناتئة.

فردّ عليها صوت القادم لتعرف من هو:

باهي يا أمي، انزلي بسرعة وقولي لخديجة تحطّ على رأسها.

- خير... إن شاء الله لا حر لا شر.

- تي الكفار يصوّرو فيكم ينعن... أمهم... دين... ظنا... الـ...

نهرته والدته التي أصبح قربها بعد اجتياز الدرج بسلام:

- تحشَّم يا ليد واختشِ على وجهك من الكلام البطّال.

وجد محمد شقيقته خديجة لا تزال من دون غطاء يحجب شعرها، كانت تدقّ الخبز بمطرقتها كمطرقة آلية، أو كأنّها في عالم آخر عجينته أفضل من عجينة عالم اللثامة حيث تعيش. لم ترفع عينيها عن بساط الخبز اليابس مستغرقة في الدق، وهو ما جعل محمداً يعتقد أنها لا تبالي بكلامه ولا تريد الامتثال لما يقوله، فما كان منه إلا أن ركلها برجله، قائلاً:

- تي غطي راسك يا قردة. راه نكسره لكي.

هنا، عادت خديجة إلى اللثامة، صائحة:

- ووووه، كنك، كنك تضرب، شنو درتلك؟

حاولت الدفاع عن وجهها ورأسها في حركة طبيعية من دون أن تضع المطرقة من يدها.

قدّر شقيقها حركتها تقديراً خاطئاً، وظن أنّها تهدّده بالمطرقة، فهجم عليها

وأسقطها أرضاً، وأخذ يهشم وجهها بقبضته، صائحاً في هياج:

-آه، وتردّي عليّ يا قـ...اللي يرد على أحميدة ما زال أمه ما جاباته.

صرخت الأم التي أنجبته، وقدّت قميصه من دبر، وهي تولول خشيةً على وجه ابنتها من إصابة تعيق زواجها، وتجعلها سلعة بائرة أو خبزاً يابساً، على حد قولها.

-سيب أختك، سيب وجهها، توا تعوقها وتقعد كي الخبزة اليابسة.

وما كان من خديجة التي اختلط الأمر عليها بين محاولة ردّ الهجوم والدفاع عن نفسها، إلا أن تمسكت بالمطرقة التي حاول شقيقها انتزاعها منها. اعتقدت أنّه يريد ضربها بها، فهو أحمق، واعتقد هو أنّها ستضربه بها ثأراً لوجهها الذي نزف الدم منه، فهي ممتلئة غيظاً.

اختزل الصراع نفسه فجأة بين الأخوين في من يستطيع حيازة المطرقة لحماية نفسه من الآخر.

نزلت والدتها مسرعة لطلب النجدة، فتعثرت بالدرج الإسمنتي الذي غشهم به العامل المصري. سقطت على وجهها وأخذت تتدحرج من الدرجات اللاشرعية إلى الدرجات الشرعية، وضاعت بعض أحرف النداء من صوتها وهي تنطرح أرضاً، متألمة:

-أَ إِ أُ يَ يِ يُ وَ وِ وُ.

كانت تسمع صوتيهما، وهما يتدحرجان على بُسط الخبز اليابس ومعهما

تتدحرج شياطينهما، حتى اختلط صوت عراكهما بصوت قرمشة فريدة، واختلط صوت القرمشة الفريدة بالمطرقة، وصوت المطرقة بصوت طائرة قريبة تقوم بمهمّات استطلاعية ما زالت الحكومة تنفيها وتكذّبها.

آخر النهار، كانت صورة الخبز اليابس المضمَّخ بالدم لدى المخابرات الأميركية والإنكليزية والفرنسية، وكانت جميعها تبحث عن خبير خبز بالدماء يفسرها لها.

١٧

الروح العظيمة لحسونة أونيس

حسونة أونيس ضخم الجثة بشكل لافت. وفي كثير من الأحيان، يشعر بأنه ليس حسونة أونيس الذي يعرفه الناس على الإطلاق، وأنه أكبر مما يبدو لهم، وأضخم وأعظم حتى من عمارة التأمين. إنما يستحيل عليه كعمارة أن يشرح لهم ذلك.

متى شعر إنسان بصوته الداخلي يقول له إنه كائن عظيم ومهم لحفظ البقاء على اليابسة والماء، يستحيل أن يأتي الواقع ويقنعه بأنه ليس أكثر من هراء متطاير أمام مروحة نفاثة.

يستحيل على أونيس كذلك الاعتراف لأحد بأنّه جرب مشاعر عمارة التأمين حين افترستها الجرافة الحديدية العام ٢٠٠٠ من دون مبرّر، وبأنّه تألم ومرض وعانى الكثير من شعور الهدم من دون وجه حق.

يستحيل عليه القول كذلك إنّه تحول يوماً ما إلى مسلخة، وأحس بإحساسها أياماً قبل أن يتحول إلى ثور هارب من الذبح بسكين الذبح في رقبته.

يكتم أونيس نظرية خلقه الخاصة به، ويدّعي أنه يصدّق ويؤمن بكل ما اصطلحت عليه البشرية بشأن الخلق والميلاد والصيرورة. لكنه، في الحقيقة، يملك فهمه الخاص الذي لم يبح به إلا لـ«رِجل» الطاولة في مطعم بيومي للكبدة.

صارحها، قائلاً إنه عاش ذات مرة كمدرسة بين أهله وأناسه، ولم يفتّت تلك الكينونة لديه إلا توقف الدراسة ونزوح أهالي التلاميذ بسبب الحرب.

«وهنا، لم يعد للمدرسة من دور... معك حق».

قالت «رِجل» الطاولة.

وفي إحدى المرات، شعر أونيس كما لو أنه بنك يعاني شح السيولة ويتراكم الناس أمامه نياماً وقعوداً، على الرغم من وجود البنك وفروعه ورقود الفروع في ليبيا، ووجود أونيس فعلياً في تركيا.

كما شعر بأنه سلاح ناري نُفذت به عمليات اغتيال لأشخاص حقيقيين في بنغازي، ثم سار في جنائزهم كما لو أنه أونيس وليس الأعيرة القاتلة، على الرغم من أنّه لم يدخل بنغازي أبداً وكان فعلياً في مالطا.

ناهيك عن أنّه عاش فترات من حياته كملعقة، وبخاصة تلك التي تغيب عن المائدة ويتم استدعاؤها من الاحتياط للحاق بالوليمة. ثم حين استوفى أجَله كملعقة تحول إلى صاروخ، وكانت كوريا الشمالية، خلال أيام تهدّد العالم برأسه دون أن تدري أنّه رأس أونيس، لا رأس الصاروخ النووي، وأونيس في الأساس كائن مَنَوي يعيش بمشاعر الشيء الذي

تحوّل إليه، من دون أن يخرج من إطار أونيس الذي يراه به المجتمع، ويعرفه من خلاله الناس.

ذات مرة، دخل أونيس محلاًّ فدهمه الشعور بأنّه سيصير شيئاً، فتبع شعوره دائراً في أرجاء المكان، إلى أن وجد روحه الجديدة في ثلاجة اللحوم. وخرجت روحه منه وحلت في الدجاجة الموضوعة في منتصف الثلاجة، فتغير سعرها حالاً من عشرة دنانير إلى خمسة وعشرين ديناراً.

لم تكن الحالة التي اعترته طارئة، فهو مذ وُلد لديه هذا الشعور العظيم القادر على تغيير كينونته كاملة.

يُحكى أنه نظر إلى أمه وهي تُرضعه نظرة حادة، وقال لها:

– معادش تاكلي فلفل، الحليب حار.

فانقطع الفلفل من أكلها والحليب من ثدييها. ثم، بعد تأسيس دولة ليبيا عام ١٩٥٢، تنقَّل أونيس في تحولاته من مادة إلى أخرى، فمن تراب المستنقع الذي خلق منه تحوّل إلى بترول، ومن البترول تحوّل إلى نقود، ومن النقود تحول إلى كهرباء وطاقة، حتى أضحى القوّة الروحية العظيمة التي أضاءت ليبيا وأخرجتها من الظلمات إلى النور، وتسبّبت بنقلها من عصر الرعي والحركة إلى عصر النفط والعمال والخمول.

هكذا، تابعت روح أونيس نموها حتى تحولت إلى أمانٍ تنتاب الأمة الليبية، وبات وسيطاً بين الليبيين وربهم، وله منزلة الولي الروحي على أرواحهم.

الآلية التي تعمل بها روح أونيس العظيمة:

دعت سمية ربّها، قبل مغادرة ليبيا للدراسة في الخارج، أن يرزقها بيتاً يسرّ قلبها وينهي نزوحها وتشردها من مكان إلى مكان. كان أونيس حاضراً في الدعاء حتى وإن لم يؤتَ على ذكره فيها بعد، فبصمته لها حضور هزّة أرضية.

أما فاطمة فقد سبقت سمية بزمن طويل ودعاء كثير واستجداء مديد، بأن يرزقها الله سقفاً يجمع شتاتها، أو حتى شقة خلو رجل في منطقة شعبية.

وقدّمت كل منهما، في سبيل تحقيق ذلك، قرباناً إلى الله، فتقبّله من سمية ولم يتقبله من فاطمة التي انهارت، باكية بمرارة قلّ أن شهدت الملائكة مثلها، متسائلة في حيرة:

«لماذا دعوت الله مثلها وتصدّقت وعملت خيراً كثيراً ليستجيب لي، لكنه فعلِ العكس. تركني أنا واستجاب لها، وهي التي لم تدعه سنوات مثلي ولم تزكِ ولم تتصدَّقْ. لماذا هي ولست أنا؟».

مضت الأيام وأصبحت الشهور سنينَ، وأصبحت كتيبة أنصار الشريعة في بنغازي فصيلاً من فصائل داعش تغذّيه مصراتة بالمال والعتاد والمقاتلين والألغام والأسباب.

جمعت بنغازي صفوفها، واختارت قيادتها وأعلنت حربها على الإرهاب، واشتعلت المدينة سنوات، وكان من نتاجها أن دُمِّر بيت سمية بشكل شبه كامل، ثم تعرّض المتبقي منه للنهب، وبيعت آخر مكوِّناته من الأسلاك الكهربائية والنحاس وأغطية الصرف الصحي في أسواق الإسكندرية في مصر.

كابرت سمية ضغط دمها المرتفع، ومسحت دموعها في الغربة، قائلة لزوجها:

-الطير يقول يا وكري ولو على عود. لازم نعاودوا.

وعاضدها زوجها، وعادا إلى الخرابة.

حين اقتربت من أطلال بيتها لم تعرفه. كان مدمَّراً، مشوَّهاً، محترقاً، منهوباً. فانهارت وزوجها باكيين.

تلفتت إلى الجدران تريد أن تتعرف إليها، إلى مواضع الأبواب والنوافذ، إلى غرفة نومها، إلى الحديقة الصغيرة التي زرعت فيها فسيلة نخل يوم اشترته، وإلى الفسيلة كيف أضحت. حاولت تذكّر شكله القديم وهي فيه، حاولت احتضانه كميت عزيز، وذهبت تعاين الفسيلة وما حلّ بها، هل صمدت في وجه الموت أم يبست وماتت؟

تخطَّت الركام، تخطَّت الظلام، تخطت الكلام. ومدت يدها إليها للسلام:

«السلام عليك يا عمة. حمدًا لله على سلامتك من كل هذا الدمار. لقد كبرتِ على الرغم من معالم الموت والحريق في الأرجاء».

اقتربت سمية أكثر من النخلة، وكانت إنها تقترب من نهايتهما معاً. فقد داست لغماً أرضياً زُرع تحت النخلة في العام الذي سافرت فيه إلى الخارج، فتحوّلت في لحظات إلى أشلاء، ورحلت متأثرة بحزنها وجراحها وانعدام الخدمات الطبية في المدينة.

كانت فاطمة تبكي في مأتم صديقتها سمية، مردِّدة في نفسها:

«ربما لهذا السبب لم يعطني الله البيت الذي طلبته... الحمدلله على نعمة عدم الاستجابة!».

وبدلاً من أن تنتقل ملكية البيت المحترق إلى شخص آخر يعيد بناءه وإحياءه، اختفت الشهادة العقارية له مع صاحبته الراحلة، وغدا موضعه مكبّاً للقمامة وزحف البناء العشوائي. تحول إلى كيان مختلف، أمنية لشخص آخر دعا الله من أجلها كثيراً.

تحول، تحديداً، إلى سيارة وكشك سجائر.

أما السيارة فقد كانت طموح أحد الشبان من عشاق العَدْو داخل المدن. وأما كشك السجائر فكان أقصى أمنيات رجل عاطل من العمل.

أما البيت الذي رَجَت فاطمة امتلاكه، فقد اقتنعت بما لا يدع مجالاً للشك، بأنه الآن شيء آخر لدى مواطن كوني في مكان ما، ولا يزال في صدد استعماله.

أغمضت عينيها وأوصت نفسها بالصبر، وإعادة بناء الحلم من جديد في بلاد بعيدة تحكمها روح غير هذه الروح المجنونة التي تقود ليبيا منذ ملايين السنين.

وما زالت روح حسونة أونيس تغمض عيني فاطمة الحزينة.

«وان موهي جاج»، مواطن من الجنوب، وليس مومياء.

في البدء، كان اعتيادياً في سبها، ترك الخُدّج وحديثي الولادة الموتى في ثلاجة المستشفى، ثم صار من العادات والتقاليد ألا يعود أهلهم لدفنهم.

تشاجرت هنية مع زوجها، الليل الفائت، بشأن دفن طفلها الثاني، شأن معظم النساء في سبها، وصحت بوجه عابس ومزاج سوداوي ثقيل بعد عراك استمر حتى ساعة متأخرة من الليل.

أمسِ، أيضاً، شهد عيد ميلاد طفلها الأول. وكان مناسبة ملائمة للعراك بخصوص المولود الثاني الذي لم تتسنَّ له مغادرة المستشفى حيّاً ولا ميتاً.

ألبست هنية طفلها ملابسه، حانقة، وهي تتمتم بكلمات كثيرة متناثرة في كل اتجاه. أدخل الطفل ذراعه في كم القميص، وسأل أمه محملقاً في وجهها الغاضب:

- وين ماشيين يايام؟

- لعمك عبد الله عثمان نعطيه فلوس الجمعية باش يدفن خوك.

- وبويا خيره[1] ما يمشيش معانا؟

- بوك ميت من زمان!

سكت الطفل. لم يفهم شيئاً من الطلاسم التي قالتها أمه. فإذا كان والده ميتاً، كما قالت، فلماذا حضر عيد ميلاده أمسِ، وأكل نصف الكعكة، ونام معها في غرفتها، وتجاوز شخيره باب المنزل؟

انتعل الصغير حذاءه الرياضي بمساعدة والدته وصرخ «آه، آه، آه»، عند انتعال الفردة الثانية، ثم كرّر الصراخ، فكان لزاماً نزع الحذاء وقلبه وخبطه بالأرض لإخراج الحصاة منه.

غالباً ما يصبح الطفل جاهزاً للخروج بعد خروج الحصاة.

أما هنية فلا تحتاج إلى الكثير للخروج: جلباب أسود، حذاء صيني، وشاح أسود، إزالة آثار الكحل السائل من محجري عينيها، وتصبح جاهزة لجميع المناسبات، إضافة إلى كيس قماش أزرق يرافقها في جميع التنقلات، حين تحتاج إلى شيء تدسّ يدها فيه فتُخرجه كما يُخرج الحاوي الحمام من مناديله الملونة.

تأبّطت هنية الكيس، وأخذت صغيرها من يده وخرجا. مرّا، وهما في

---

(١) ما به لا يذهب معنا.

طريقهما إلى بيت جدته، بالمقهى الذي يجلس فيه والده وأصدقاؤه، حيث يتبادلون الأخبار طوال اليوم، ويحلّلون السياسات الإقليمية والعالمية المتعلقة بسبها وضواحيها، ثم يصنعون توقعاتهم الخاصة عن المستقبل، ويتابعون جدية التهديدات الأوروبية بشأن تهريب البشر.

يهتمّ عبسلام زوج هنية بفهم مخططات أوروبا بالنسبة إلى الهجرة غير الشرعية: هل هي مراقبة البحر، أم مراقبة الصحراء كي يقرر بعد ذلك مصير شاحنة التهريب التي تعمل على خط القرضة -طرابلس، وتدر له ربحاً جيداً. هل ستستمر الشاحنة الخاصّة به في العمل، أم سيعود إلى بيع الترفاس؟[1]

كانت الساعة تخطّت الحادية عشرة صباحاً حين أشار الطفل لأمه، بيده التي لا تمسك بها، عن مكان والده.

- انهو[2] بويا يا يام؟

- اسكت راه نجيفك هنا.

قالت لها أمها إنّها ستزهق نفسها وطفلها مشياً على الأقدام إلى المستشفى، فالحرّ في سبها شديد ولا أحد يعبأ بدفن الأطفال. الرحمة موجودة فقط في البرامج التلفزية وخُطَب الجمعة وعند أسرّة المحتضرين. والدها فعل الشيء نفسه مع أحد أشقائها مذ تأسست ثلاجة الموتى في سبها عام ١٩٧٥، وكانوا يأتونها ركوباً من تمنهنت. قالت له في ذلك الزمن البطيء:

---

(١) الكمأ.

(٢) ها هو هناك.

«ادفن ولدك يا راجل حرام عليك».

فردّ عليها: «كان ما توسكتي ندفنك أنتي مش هو».

وصمتت صمتاً إجبارياً انعكس على القنوات الدمعية في عينيها، فالطفل تعفّن في الثلاجة، كما أتتها الأخبار، وما من فاعل خير تبرَّع لدفنه، حتى باعت قرطَي عرسها، وأرسلت بثمنه كلوراً وبخوراً وبعض النقود إلى الحارس، لعلّه يدفن الطفل ويقطع حبلها السري مع الثلاجة.

تعب الحارس من الاستغاثة: الثلاجة امتلأت، الثلاجة تعفّنت، الثلاجة انقطعت عنها الكهرباء شأنها شأن سبها. الثلاجة لم تعد فيها أماكن شاغرة للجثث الجديدة.

ثم جعل في كل درج جثتين أو أكثر. ثم، بمساعدة زوجته، صار يدفن أولاً أولئك الذين لا يجعلون باب الثلاجة يوصد.

خارج الثلاجة، كانت الحاجة إلى التلفيق تترسَّخ. كل كبير يُدفَن معه طفلٌ صغير سيخفف عنه أوزار الحساب وعذاب القبر.

كانت الكذبة تصير تقليداً راسخاً بفضل تبرير اللامبالاة والكسل. وقد تربك في المستقبل علم الآثار إن قرر أنّ الناس دُفنوا متقابلين في سبها لأنهم متحابّون، وليس لأنهم كسالى عديمو حس، وأن «وان موهي جاج» أقدم مومياء في أفريقيا، ما هو إلا طفل تعرّض للكلور والبخور والانتظار الطويل بسبب عدم إكرامه بالدفن في عصر ما.

بكت هنية، وهي تناول العم عبد الله الكلور والبخور، وتنظر إلى الدرج

الموضوع فيه ابنها الخديج، والمشار إليه، بحسب كيس التغليف، بالجثة رقم ١٧٧ مع اسم الأم:

«ولد هنية بنت عبد الدايم بن محمد بن عبد الله».

لكنّ هنية بنت عبد الدايم تسمّيه «محمداً»، حين تتحدث عنه، ولا تنزع عنه اسمه الذي لم يتسمَّ به، كما لا تنتزع نفسها منه ومن أمومتها له.

قال لها الحارس إنّه غيّر مكانه من الدرج إلى حيث تديم النظر، فاتسعت حدقتاها وفكت يدها من يد صغيرها الذي رفع نظره إليها، وتساءلت بلهفة:

- جاه حدّ ودفنه يا عمي عبد الله؟ قولّي جا حدّ ودفنه.

هزّ الحارس رأسه نفياً بكل أسف.

- أماله وين حطيتوه يا نهاري الأسود؟

- كنت نطهّر في الثلاجة وانزريت[1]، فحطّيته مع الجثث الجديدة عالأرض، هاوينا غادي[2].

حدّقت هنية في اتجاه الجثث الجديدة، فرأت كومة أكياس سودٍ تدلّ أربطتها المشدودة وغير الممزقة على أنها لم تتراخَ بعدُ لطول النقل والتبديل. إنها جديدة.

---

(١) اضطررت.

(٢) ها هو هناك.

قال الحارس العجوز في عتمة الممر:

- أفارقة مهاجرون.

شعرت هنية بمشاعرَ سوداء مثل الأكياس التي ارتداها الموتى، وبالضيق والاختناق من رائحة العفن والموت. نصحها الحارس بعدم المجيء والصغير معها.

«مش كويس له يشحا[1] الموتى».

رفعت هنية الصغير إلى حضنها، ومدت بيدها مبلغاً من المال إلى الحارس، قائلة:

- ادفنه رحمة على ولديك يا عمي عبد الله. ادفنه خلّي نحط عقلي على جلوه ونتريح. خلّي نعرف نورقد كيف الناس.

شعر الحارس بالألم الذي تعانيه، وأخذ المال على استحياء، معتذراً عن سوء الأحوال وانعدام الحيلة.

- ما عادش فيه حتى من يتبرع بحنوط وأكفان. الحالة شحت وما عادش زي زمان. إيه يا بنتي الكثرة تحرم الودّ.

- فرقت الأبهات يا عمي عبد الله فرقت، ما تدور بوكل[2]

---

(١) يرى.

(٢) فرقت كلمة تقال للتقليل من شأن شيء ما... الأبهات الآباء... ماتدور بوكل... لا تبحث أبداً.

مسحت هنية دمعة باردة اعتادت نزولها لاإرادياً في الثلاجة. إنها دمعة الثلاجة التي تشعر هنية بأنّ لها مزيجاً من رائحة الكلور المختلطة برائحتَي العفن والبخور. نصفها تذرفه هنا، ونصفها تذرفه هناك.

عادت مريم أم الطفل، قريره، من المستشفى، في الليلة الثانية بعد الأربعين لميلاد الطفل ميتاً، بعد أن سمّته على اسم جده لأبيه، كما يتطلب العرف، وأودعته الثلاجة هناك كما شاءت الأقدار.

تشاجر حزنها مع لامبالاة زوجها الذي لم يهتم بأخذه ودفنه، وصفَق في وجهها باب الحمام. فنادته من وراء الباب المصفوق قائلةً:

- ادفن ولدك عيب عليك يا كرموسي، قريره ولدك راهو.

أجابها الكرموسي، من وراء الباب من الجهة الثانية:

- شن نبي ندير بيه رافعه معايَ.

- تي حرام عليك يا راجل!

- حرام علّلي يكذب ويسرق. خلّيه يندفن مع حدّ كبير نربحو أجره.

- منبيش الأجر إلّلي هذا شكله، نبي ولدي يندفن وخلاص.

وعلى الرغم مما ينشأ وراء الأبواب المغلقة من احتجاجات لا تُذاع ولا تشيع، فإنّ البيوت تمتلئ بها كما الأكياس السود، وتتعفّن كما تتعفّن ثلاجة موتى، وتتحول بمرور الوقت إلى مقابرَ يمارَس فيها التكاثر والحزن والكلام.

طلب الكرموسي، زوج مريم، من حارس الثلاجة عندما قابله في صلاة الجمعة، أن يدفن قريره، ابنه، مع أول شخص كبير. فردّ عليه الحارس قائلاً:

- الثلاجة ما تسعش غير ٣٢ ميت[١].

- قريره ملايكة يا عم عبد الله إذا دفنتوه مع كبير، فإن الله سيعطي أجره للكبير.

في يوم ١٢ رمضان لقيَ عبسلام زوج هنية حتفه في تصادم شاحنات فاجع على طريق القرضة - طرابلس، فدُفن معه طفله الذي انتظره شهوراً في ثلاجة المستشفى.

أما قريره بن مريم، فما زال ينتظر.

---

(١) لا تستوعب.

١٩

قائد ميداني

شارك بوعجيلة في الثورة بعينيه إيماناً منه بعدم تسليحها. كان سلاحه النظر إلى الهدف وإصابته بنظرة محطمة. وفي هذا الصدد السلمي للثورة، يُروَى أنّه أحرق رتلاً مسلحاً كان متجهاً لتدمير مصراتة، فارتدّ الرتل على من أرسله ففتك به. ويُروى أنه نظر إلى القذافي وهو يخطب من أعلى السرايا الحمراء، فسقط القذافي. ونظر إلى العقيد ميلاد في أثناء خطبة له ضد الغرب الإمبريالي، فتفجرت بواسيره، وتطلب علاجه سفره إلى الغرب الإمبريالي. كما نظر إلى عمارة جميلة، فعرج عليها صاروخ كان موجهاً إلى ورشفانة، إلا أنّه أصاب العمارة عوضاً عن وكر اللصوص. كما استطاع بنظرته الثاقبة إيقاف نشرة كانت تُبَث في التلفاز بعد أن حملق في الشاشة وعقد لدقائق حاجبيه الكثّين، فاحترقت القناة إلكترونيّاً، واختُرقت، وكُشف الكثير من أسرارها ومؤامراتها. وأصاب المذيعة سرطان في المخ.

كما نظر إلى مئات النساء في إيطاليا فاغتصبهن بالنظرات.

هذا ما خصّ بوعجيلة الرافض تسليحَ الثورة والثوار مهما كان حجم الديكتاتور الذي تقوم الثورة ضدّه. أما رسول خان، زميله في صف تعلم اللغة الإيطالية، فهو طالب أذربيجاني طموح يدرس نهاراً، ويحاول مساءً أن يكون رسول حبّ وسلام. يأخذ عدّة الرسم ويتجه إلى جسر سانتا بربارا الحجري، ويشرع برسم البحيرة والطيور المحلقة فوقها.

حين يمر بوعجيلة برسول خان وهو يرسم، لا يعرف لماذا تعاوده ذكرى بلدتهم التي تفتقد البحر والبحيرات وعيون الماء وأنواع الطيور والأشجار والورود والنباتات، فيشعر بشيء من الحقد الغامض، ويتمنى لو تسقط اللوحة في البحيرة، وينكسر المحمل، وينهار الجسر، وتفشل النجدة في العثور على رسول أو «الدبة بو الصفاطي»[١]، كما يدعوه سّراً وجهراً.

حصل بوعجيلة على منحة الدراسة بالاحتيال عبر بعض الوساطات في برنامج إعادة تأهيل الثوار، وسرعان ما أضحت شهرته بين الثوار الليبيين الذين امتلأت بهم إيطاليا هي «بوعجيلة سكود»، بسبب قدرته الكبيرة على إلحاق الضرر بعينيه بأي شيء ينال غيرته وحسده، أو إعجابه. لم يخطئ أهدافه مرة. قضى، حتى الآن، نصف سكان إيطاليا نحبهم، ونصفهم الآخر ينتظر.

في صغره، أمضى بوعجيلة طفولته مع جدته وأقاربه والسلف الصالح. كانت هواية السلف الصالح آنذاك اصطحابه إلى الأفراح، حيث تلقّى جل تدريباته على تدمير كل شيء بعينيه فيها. وخلافاً للأفراح، كثيراً ما شدّته جدته من ياقة قميصه وطلبت إليه التحديق في شيء ما من باب التوجية

---

(١) السمين صاحب الثنايا.

المعنوي. لذا، لم يكن طفلاً عادياً على الإطلاق، بل روحاً زحفت إليها شيخوخة الآباء وكراهيتهم التي تسمى «خبرة وحكمة» من باب التفاؤل.

حاول بوعجيلة في إيطاليا نسيان الماضي والتخلص من روحه القديمة. تعثر بأشياء كثيرة لا تريد أن تتغير فيه، وكانت روحه القروية أقوى من بعض محاولاته. حاول قتل جدته وقريباته وأقاربه الذين يعبثون بروحه كل آن، ونجح في الفتك بثلاثة منهم، وجوههم مليئة بالأوشام، لكن، ما زال أمامه طابور به ثلاثون شخصاً يبدو أن خلاصه الروحي منهم سيكون صعباً.

إن إزالة وشم من جسد الإنسان أسهل من إزالة وشم في روحه، فكيف إذا كانت الروح حاقدة؟!

كان رسول يتناول الفرشاة بحبّ، يغطّسها في اللون الأزرق ثم الأبيض، ويرسم السماء بروح عاشق، وكان بوعجيله يمسك بالسيجارة، تلو السيجارة، ويمصّها بحنق حتى تصدأت أسنانه واسودت رئتاه.

رسم رسول المكان بشكل عام، ورسمت مخيلة بوعجيلة آثار لبدة الكبرى[1]، حيث رعى الأغنام دائماً، وجعلها تمتلئ بالأولاد الصغار الذين يجرون أمامه وخلفه، هو تمثال سيبتيموس سيفيروس. نعم، هو سيبتيموس بوعجيلة سيفيروس، ولا بدّ، والحال هكذا، من أن تذرع المكان بضعة عجول، ويمرّ سرب خجول من النساء الملتحفات بالعباءات، ويتكدّس الشيوخ على التراب للعب الشيزة، ويلوي الشبان الملل ويلوونه، وتحاول عيون يملأها الكحل التلصص من وراء الأخبية.

---

(١) مدينة أثرية رومانية شرق طرابلس.

ثم جاء اليوم الذي أصابت فيه لعنة بوعجيلة رسول خان، فرمى الألوان في البحيرة كالمجنون، وجعل السماء ملبّدة بالغيوم، وقتل الطيور كلها في الأفق ما عدا طائراً واحداً هرب من اللوحة إلى ليبيا، فأصابه الأولاد بحجر في مسلاته فسقط أرضاً قرب الشيوخ المتكدسين للشيزة. نهض إليه أحدهم مسرعاً قبل أن يلفظ نفسه الأخير، تفحصه ثم صاح في الأولاد:

-الموسى بسرعة، ما زال حيّاً.

نظر إليه الطائر بعينين تداخلت نظراتهما من هول الصدمة، وطقطق منقاره كما لو أنه قال: رررروح أو ووووه. أكمل الطائر رحلته الدنيوية في حلة الشوربا بسبب عيني بوعجيلة. وكان بوعجيلة سعيداً بعودة الإلهام إليه. لكن، كي يتضاعف ويصبح مطواعاً، كان عليه أن يكثر من القول.

- هالدبة بو الصفاطي، إن شاء الله يطيح بيه الكرسي.

أنهى بوعجيلة دورة اللغة، قبل انتهاء العام ٢٠١٧ بقليل، وعاد إلى أرض الوطن غانماً، مبهوراً بما رأى في بلاد الأصنام والرومان الذين تركوا له أكبر مسرح روماني رعى قربه الأغنام. وكان مأخوذاً بالبارات والمراقص والعاهرات في الدرجة الأولى والدرجة العاشرة. في حين انتهى العام برسول خان في المستشفى، مكسور اليد والرِّجل، بعد أن تعرّضت البلدة لزلزال قوي وانهار جزء من جسر سانتا بربارا في البحيرة.

قررت ملائكة الجسر والبحيرة والدرك الوطني، إرسال بوعجيلة إلى الجحيم؛ أي إلى قريته.

الحب مصيبة والميكانيكا بحر

السر الذي تخفيه الهندية شارملا كومار، عن ابنها الآتي لزيارتها من ودواركا، هو تخليها عن ممارسة تعاليم الهندوسية المقدسة واندماجها في نمط حياة غربية بالكامل.

جربت شارملا كومار أكل البقر المقدّس أوّل مرّة لمناسبة عيد الحبّ، ومنذ ذلك الحين ذهب الحبّ وبقي اللحم في حياتها، وهي لا تخفي تذوّقه إلا في وجود هنود، حتى وإن كانوا من طوائف أخرى.

لم تصدق أنها تذوق لحم أمّها التي تمنحها اللبن، لكنها كانت فرِحة بكلّ شيء جديد مع عشيقها الإيطالي الجديد الكاربينيري سالفيني، أو لعلها كانت سعيدة بسبب مغادرة عالم البقر الذي عاشته سنينَ طويلة.

لم تصدّق أنّ صديقها قادر على أكل لحم الخنزير، ذلك الحيوان الكريه القذر، بحسب رأيها. لكنها كتمت مشاعرها الخاصة في قلبها، مثلما كتمت

الريح الموشكة على الخروج منها بسبب استغراب معدتها اللحمَ الغريب.

غمرتها السعادة والفرح، طوال السهرة في مطعم بنفنوتي إن إيتاليا في ستسيوني تيبورتينا، بوجود رجل عظيم في حياتها؛ رجل يمثل السلطة من أهل البلاد، وليس مهاجراً بائساً مثلها. إلا أن وجه البقرة التي أكلت لحمها حام حولها ولامها على خطيئة أكل لحم أمها. «لماذا خنت دينك في أوروبا يا شارملا كومار، يلعن...؟».

لم تكن شارملا متأكدة من أنّ البقرة التي قالت لها ذلك هي نفسها البقرة التي تمدّد جزء من فخذها في الصحن أمامها، لكن ملامح البقر لدى مجتمع البقر واحدة، وإن اختلفت مذاقات لحمه، بحسب العمر والكلأ.

كانت البقرة المقدسة التي عاتبت شارملا، قد تعرضت لاغتصاب قبل ساعتين من ذبحها. كان الفاعل ثوراً إسبانيّاً عنيفاً وبهيماً ومجنوناً، ضربها بقرنه بعد قضاء حاجته منها فسبّب لها رضوضاً في الفخذ التي تناولت شارملا قطعة منها.

اقتيدت البقرة إلى الصعق الكهربائي، بعد ساعتين من المسافدة العنيفة. ووافق مجيئها بداية العمل بالصعق الكهربائي الجديد بقوة ٦٠٠ فولت بدلاً من ٤٠٠ فولت، وهو ما يعزز أنها ماتت بطريقة خالية من الألم، على الأرجح كانت مبتسمة أو ضاحكة.

الله أعلم.

أكثرت شارملا من التبسم والشراب، وجاملت صديقها الذي لا تريد إدخاله

معمعة نقاش عقائدي، فابتلعت اللحمة بالشوكة والسكين، كما تقتضي التقاليد المتمدنة، من دون إظهار تعاطف أو رغبة في التقيؤ أو شعور بالذنب. وكان وجه البقرة، في أثناء المضغ، يظهر ويختفي وفقاً لحركة فكّي شارملا.

في الأسفل تقلص، وفي الأعلى ظهور.

تجعّد وجه البقرة تماماً، مع تعدد كؤوس الشراب، حتى خلطت شارملا بينها وبين وجه الحبيب سالفيني. فعانقته واعتذرت إليه عن أكل لحمه، ثم انتحبت.

ذهب السُّكْر، في اليوم التالي، وخفّت نشوة الحبّ، وأعربت البقرة عن وجودها في أمعاء شارملا على هيئة غازات مزعجة. توجَّب على شارملا القيام بمهماتها بشكل اعتيادي في الخدمة المنزلية، فتحت الثلاجة، فقابلها وجه الإله كريشنا وليس البروكولي. للحظة خيّل إليها أنها تفتح باب الهند لا باب ثلاجة السيدة بيرناردينو. انتفض قلبها وخافت، فأغلقت الثلاجة بسرعة ووقفت على بابها، ثم ما لبثت أن شعرت بأنّ كريشنا حزين من فعلتها، وأنها ارتكبت الزنى فعلاً، فخجلت من فعلتها متكوّرة في تيشيرت لاكوست قديم، وقد قضمها تمساح الندم الحقيقي.

في تلك الليلة التي كسرت فيها شارملا القداسة على طاولة خشب تافهة، كان إلى جانبها ستة من الجرحى الليبيين، كسروا قاعدة مقدسة لديهم هم أيضاً، بعد أن سكروا وعاشروا عاهرات ستسيوني تيبورتينا. لكن، والحق يقال، خلا عشاؤهم من مشتقات الخنزير لأن أكل لحمه حرام، فهو حيوان قذر ديّوث، يمكن أن تنتقل دياثته إليهم.

كان بينهم سيبتيموس بوعجيلة سيفيروس وشخص لم يتوقف عن الضحك الهستيري والصياح:

-الحب مصيبة... والميكانيكا بحر.

كان ميكانيكيّاً شهيراً شارك في الثورة، ثم رفض العودة إلى ورشته بعد انتهائها، ورشح نفسه للعلاج في الخارج كجريح. ترنح مرات عدة، ووقع على شارملا محاولاً معانقتها، إلا أنّ الكاربينيري سالفيني منعه. ثم صفعه ليتوقف، فقال له الميكانيكي بروح رياضية عالية:

«ويحك، الحب مصيبة... والميكانيكا بحر».

كانت شارملا هي الأخرى قد سكرت وعانقت عموداً خرسانياً من أعمدة المحطة، وقبلته ظنّاً أنه سالفيني. كما التقطت جملة الثائر الليبي، وغدت تردّدها كلّما سكبت شيئاً أو كسرت غرضاً.

أما حين زارها ابنها الهندي الصغير، فلا مناص من إعلان حالة الطوارئ لإخفاء أسرارها الخاصة: سر لحم البقر وسر الكاربينيري. فهي سيدة متزوجة بمواطنها جاكيشان الذي لم يحصل على فيزا إلى إيطاليا، ولها منه هذا الصبي.

كانت شارملا إذا أخطأت انتفضت، قائلة:

-هوب صيبه... ميكاكيكا بهر.

أي اللعنة على ما حدث.

اللعنة على تلك الليلة التي جربت فيها كسر المقدس. ومن باب التباهي، نقل الهندي الصغير إلى جزر الهند الشرقية عن أمه هذه العبارةَ المليئة بمشاعر الأسف، فانتشرت في قريته وفي القرى المجاورة على أنها أحد تأثيرات العولمة والحضارة الأوروبية الحديثة، وصارت لها دلالة التعبير عن عدم الرضا عن أي واقع خارج السيطرة.

قطار يجنح عن الطريق:

-هوب صيبه... ميكاكيكا بهر.

بقرة تعترض قطاراً:

-هوب صيبه... ميكاكيكا بهر.

وباء، مجاعة، فيضانات، مشاكل زوجية، فقر، صدامات ما بين الهندوس والمسلمين، تزمير لثعبان يرفض الخروج من الجرّة... قردة ترمي الناس بالجوز، انخفاض عدد زوار قبر تاج محل... جميعها: هوب صيبه... ميكاكيكا بهر.

ومع ذلك، ما زال لحم الخنزير محرَّماً لدى شارملا ولدى بوعجيلة الذي منعه الكاربينيري سالفيني من تقبيلها، فقرر أخذه بدلاً منها في حادثة هي الأولى من نوعها استعان فيها بوعجيلة بعضو آخر غير عينيه، واكتشف أنه لا يزال بوعجيلة حتى وإن فقأوا عينيه.

٢١

الشهيد المؤجَّل

ظهر التشيكي فجأة في بنغازي. لا أحد يتذكر أول حضور مجتمعي له هناك، لكنه أضحى من خيلها التي يركبها إبليس ساعة التلبيس، ويطلقه على أهلها ليتأبطهم شراً.

قيل إنّ التشيكي أمضى سنيَّ فتوته يتلقى التدريبات في طرابلس كي يصبح جواداً ماهراً، ثم اختفى فجأة من هناك قبل أن يظهر فجأة هنا. كما رُوِيَ أنه أحد خيول الحاجّ المشتراة بأثمان عالية للتهجين، وقيل عن ذلك إنّ الحاجّ اشتراه لأنه كان ضحية الاعتقاد بأنه من سلالة أصيلة. كما رُوِيَ أنه لم يكن ضحية شيء على الإطلاق، فالمسألة برمتها ليست سوى دعاية مجانية لمنزلة الحاجّ الاقتصادية، وما الحصان سوى مناسبة حيوانية لتسريب هذه الإشاعة الطيِّبة، وإلا فإنّ حصاناً أبلقَ قبيحاً مثل التشيكي لا يمكن أن يُعثر عليه إلا في قمامة المرج.

ومع ذلك، فإنّ من يرى بهجة الحاجّ وهو يجوب به الساحل الغربي لبنغازي، يخامره الشك في أنه فعلاً كان أصيلاً جميلاً في ناحية ما من العالم قبل أن يقتلع عود يابس إحدى عينيه ويشوِّهه التناسل مع حمير الفندق في بنغازي.

مما يرد في سيرة التشيكي التي يرويها كل من باعه عمّن باعه لكل من اشتراه عمّن اشتراه، أنه عمل في مدرسة الفاتح للفروسية في طرابلس، وكان مدلَّلاً مرفَّهاً، معنيّاً بالتلقيح وبالمشاركات الدولية مع الفريق الوطني قبل أن يتوقف الفريق ومشاركاته فجأة. والحقيقة أنه عند سرد القصص تسقط تفاصيل صغيرة تغير مجرى الحقائق من دون أن ينتبه لسقوطها أحد، وقد سقطت من سيرة التشيكي أسرارٌ كثيرة[1].

واستتب الأمر على أنّ وجوده كان مقتصراً على تحفيز الأفراس وتهيئتها للخيول الأصيلة فقط، أي أنه فياغرا حيوانية محضة، وغير مسموح له بالاتصال بأي فرس حسيبة، لذا عاش جائعاً، وحين ظهر في سوق الجمعة (سوق المسروقات) انطلق جنونه فلم يميز الناس من الحمير، من الجدران، من السيارات، من دمى العرض، فسجّلت السوق أعلى حركة تداول للنكات والضحك على مستوى أسواق الجمعة في العالم كافة.

-من أين جاء هذا المجنون؟

-لم أرَ حصاناً أقبح منه في حياتي!

---

(١) يحكى أنه في فترة حكم القذافي كان فريق الخيالة الرياضي، وهو فريق عسكري في الأساس، يقوم بمهمات خاصة وسرية تحت غطاء المشاركات الدولية في مجال الفروسية، لسهولة دخوله بعض البلدان الأوروبية.

- لو بعته لي بدينارين لَمَا اشتريته.

- ما من شيء جديد فيه أو حي عدا البروستاتا.

- أبلق وهرم وأجرب، يا إلهي إنّ الشيطان حلّ به.

ظل التشيكي في السوق وحيداً بعدما تخلّى عنه صاحبه الذي جاء به، فاجتمع ذباب السوق على وجهه ومؤخرته. ولم يكن حوله إلا القاذورات التي يبحث بينها عن طعام.

مرّ به محمد خبزة هو وأنصاره من جامعي خبز السوق، بعد ساعة من الدوران في الأرض القذرة. وسخروا منه وضربوه بالعصيّ على مؤخرته ليتحرك، وعاينوه من قرب، ساخرين من تهدُّل كيسيه ومن شكله.

وكما لو أنّ بقاءه يوماً في السوق جعله يتقن السوقية، فقد فهم دعاباتهم، ورغب في مشاركتهم في المرح، فرفع ساقه عالياً ليُريهم آياته ورفس أحدهم.

كان المرفوس محمد خبزة نفسه الذي طار في الجو ثواني. لم يتوقع أن يصنعها له المخلوق النجس، فمرّ شريط حياته أمام عينيه سريعاً: مرحلة الطفولة في شوارع اللثامة أولاً، ثم مرحلة البرويطة[1] في الفندق البلدي، ثم المرحلة الحالية، مرحلة جمع الخبز من القمامة.

ظن أنه يموت وأنه سيقابل ربَّه في يوم الجمعة، وهو ما يعني مزيداً من

---

(١) العربة اليدوية.

الأجر والغفران. غير أنه لا يريد أن يموت في قرارة نفسه، لا في الجمعة ولا في غيرها من أيام الأسبوع، وهو يحبِّذ أن يصاب بكسور وتتحطم جمجمته نُتَفاً على أن تنتهي حياته بين قاذورات السوق بسبب هذا الحصان الكريه. سأل نفسه وهو يعود إلى الأرض: لماذا لا آخذ هذا المخلوق القوي وأستثمره على نحو ما؟ فما لديه من قوة اختبرتها الآن بنفسي، لا بدَّ لها من وجه انتفاع في عالم بنغازيٍّ الولادة.

كان محمد ممّن يعتقدون أنّ الأشياء السيئة لا تقع للناس إلا لحكمة، والحكمة تحمل معها الخير دائماً. تصور الأمر مثل لحم الأسواق العامة، تُفسد سمعتَه فقط مسألةُ تغليفه، ومثل كعك سيدي محمد الطويل القبيح الشكل الطيب المذاق.

كان محمد خبزة هيغلياً[1] من هذه الناحية، وإن لم يعلم بأنّه كذلك.

آنذاك، قالت له الأرض التي سقط عليها وأوجعت ظهره:

خذه يا أحميدة بقوة.

خذ نصيبك بقوة.

وفي لحظة، شعر بأنّه عثر على الفكرة في أحد جيوب سرواله الذي مكث أسبوعاً في الغسالة ريثما تعود الكهرباء. ثم نظر إلى الحصان الساكن في مكانه، فخيّل إليه من قوة السقطة أنه عالٍ يصعب ركوبه، كذلك فإنه لا يبدو حصاناً ذكياً.

---

(١) اتسمت فلسفة هيغل بالتفاؤل.

إنها، لا بأس. سيعلّمه الذكاء وسيتغلب على العلوّ بكرسي.

فكّر في الحرب التي يحدث بسببها أي شيء، ويصبح حدوث أي شيء بسببها مقبولاً؛ أقلّه مجيئه إلى هذا المكان العفن بحثاً عمّا يبيعه. واختمرت لديه فكرة مفادها أنّ من الوطنية أن يشارك هذا الحصان القويّ في معالجة أحد أكبر ملفات الحرب:

الألغام!

إن خسارته لن تُعَد خسارة إذا ما أنقذ أرواح العائدين إلى مناطقهم في بنغازي بعد تحريرها من داعش. فالجيش، بقيادته الرشيدة، قادر على إخراج الدواعش من بنغازي وإبادتهم، لكنه غير قادر على اقتناء كاسحة ألغام!

لذا، دخل الحصان الميدان وأطلق عليه في محادثات الناس اسم السويهلي، أي الحيوان المجنون، وغدا يمشي في الأسواق والطرق والفراغات التي يمكنه دخولها. لكنه لم يمت. لم ينفجر به شيء، بينما كان الرجال يموتون في نَواحٍ أخرى لم يمشِ هو فيها.

كان يمشي وكانوا يمشون، وكان حظه أنه ما أُدخل مكاناً شديد الخطورة إلا وخرج منه حيّاً. وكان حظهم أنهم ما دخلوا مكاناً ظنّوه آمناً إلا وترصدتهم فيه الألغام.

علا نجمه بدلاً من أن يخبو، حتى صارت مكافأته بالبحث عن زوجة واجباً وطنيّاً. إن مخلوقاً مثله يجب أن يتكاثر لخواصّه الفريدة.

غير أنّ أحداً ممن يملكون حيوانات لم يقبل بأن يعاشر السويهلي فرساً ملكها

على الرغم من الإشادة بدوره البطولي، حدث له ما يحدث للعريس الفقير غير الوسيم عندما يتقدم للزواج ويُرفض بلباقة. الجميع رفضه للسبب نفسه، فأصيب بالحزن والكآبة حتى تمنّى الموت وطلبه من الله سبحانه وتعالى، عاجلاً بلغم، وآجلاً برصاصة طائشة.

صار يمضي للكشف عن الألغام بروح ملؤها الرجاء في أن ينفجرِ به أي شيء ينهي وجوده البائس. أما الحصول على رصاصة طائشة، فلا يتطلب سوى عدم توقعها.

كان محمد خبزة مندهشاً من التغير الذي طرأ على الحصان الهرم، ومن روح الشباب التي سرت فيه، مستغرباً نشاطه وهمته، فحصان القمامة القميء يمضي نهاره كاملاً يسير في الأحياء التي زارتها الحرب علّه يحصل على لغم الخلاص من حياة البهائم التي يعيشها. لكن تلك الرغبة في الخلاص انعكست على مدخول محمد خبزة فتدفقت إلى جيبه الأموال حتى قرر شراء شقة في حي السكابلي.

إنّ أي شيء يمكن أن يكون شيئاً آخر في الوقت نفسه، كما أن الانتحار وشراء شقة وجهان للرغبة ذاتها!

ثم حدث قدَر الله وانفجرت عبوة ناسفة زرعها الإرهابيون في السيفون عندما كان يعاين شقة الأحلام، فرحل محمد الذي لم يفكر في الموت، وعاش السويهلي الذي تمنّى الموت حتى عصر «الأيفون بلس أربعة عشر»؛ أي ذاك الذي تظهر في ظهره حدبة أو تفاحة غير مقضومة، ويعمل بنظام نزول الوحي.

عقبة الباكور

يبدو أنّ خديجة لم تكن دقيقة في استعمال الجرعات، وهي تخلط مساحيق استعادة الشباب، ولاسيَّما أنّ الكهرباء انقطعت فجأة وهي في منتصف إعداد الوصفة، فاجتهدت في تقدير المقادير، بحسب المشهد الأخير لها في الضوء، فمدت يدها بهدوء وسكبت من القناني من دون أن تهدر نقطة واحدة خارج الوعاء، ثم أعادتها إلى مكانها كذلك من دون أن تُسقِط شيئاً عن الطاولة.

ظنت أنّها نجحت، إذ لم تكسر أي وعاء، ولم تسكب شيئاً خارج الإناء، ويشهد الظلام على ذلك، كما يشهد على أنها زادت القناني التي يجب أن تكون جرعاتها أقل، وأنقصت من القناني التي يجب أن تكون جرعاتها أكثر، حالمة، بعد وضع المسحوق على وجهها، بشباب من دون حَب شباب، وبفرسان القديس يوحنا[1] يغزون ليبيا من جديد من أجلها.

(١) جماعة دينية مسيحية غزت طرابلس العام ١٥٣٥ وأنهت عشرين سنة من حكم الإسبان للمدينة.

إنها أحلام غير بسيطة، أن تكون جميلة وتحلم برجل وسيم لذا استودعتها الله، ونامت.

وكعادة النهار عندما يكون المرء سعيداً أو حزيناً، يشرع باكراً. أتى يوم خديجة وهي لا تستطيع النهوض من الفراش إلى الحمام ولا القيام بمهامها اليومية، واكتشفت في السرير جزءاً من حقيقة مساحيق استعادة الشباب، التي غالباً ما لحقتها تهمة عدم الفاعلية والصدقية، وأنها تجارة للوهم. صدقت المساحيق هذه المرة بشكل مباغت، لتصبح خديجة أول استثناء تجاريّ!

عندما تأخرت خديجة في الالتحاق بتكسير الخبز، ذهبت أمها إلى سريرها، معتقدة أنّ ابنتها ألّمت بها أوجاع الدورة الشهرية، فلم تجد خديجة ذات الـ١٧٠ سم أسفل الغطاء، بل وجدت طفلة صغيرة جدّاً في المهد تنظر إليها باكية وترجو منها المساعدة، كانت هي خديجة نفسها بعد مفعول المساحيق، عادت أصغر ممّا كان مطلوباً العودة إليه. عولجت الحفر في وجهها، ولم يعد شارعاً من شوارع السيرتي والمحيشي.

شهقت الأم هلعاً، حين رأت ابنتها تعود إلى مرحلة المهد وتعجز عن النهوض وحدها.

-شنو جاك؟ شنو صارلك؟

-ما تعيطيش... خوديني للحمام بس وتوا نحكيلك.

رفعتها أمها من السرير بيدين مهتزتين، ووضعتها على الأرض:

-جربي تمشي تره!

حاولت خديجة المشي كطفل صغير، لكنها سرعان ما وقعت وطلبت المساعدة. كانت واقعيّاً تحت تأثير الهوة الحضارية ما بين عقلها ومظهرها الخارجي.

أخذت الأم تندب أيامها، فهي في الأمس القريب فقدت ابنها محمد خبزة، وها هي اليوم تفقد ابنتها. إنها وربِّ الكعبة لَنوائب الدهر تأتي مجتمعة.

وافق ذلك اندلاع الحرب في بنغازي، وإعلان الجيش ضرورة إخلاء المنازل والخروج منها. هناك إرهابيون تمركزوا في المنطقة المكتظة عمرانيّاً، ويخشى تحول السكان إلى رهائنَ. تسارعت وتيرة الرحيل مع بداية سقوط الصواريخ على المساكن وارتفاع الهرج والمرج. كانت خديجة تنظر بحرقة، باكية ما حدث لها وما يحدث لهم، متلقية اللوم والتقريع من جميع من علموا بحالتها الجديدة.

-توا هذا وقته يا وجه الشر؟

-واللهِ، ما كان خاطر عليَّ يصير هكي، ولا الحرب تصير.

-معقولة نحن في الحرب وانت تفكري في جمالك واستعادة شبابك.

-باهي كان عاودتي صغيرة شنو تبي تصنعي بيه الصغر في بلاد ميتة؟

-حتكبري مرة أخرى وعلى الحياة نفسها، مش حيتغير شيء.

-لا هي قصدها تبي تتزوج.

أصبح كل من يرفعها يلقي عليها خطاباً له بداية وليس له نهاية إلا في مقبرة الهواري، حتى فقدت صبرها واضطرت إلى عض أنف أخيها الذي طلبت منه والدته وضعها في حجره ريثما يبلغون منزل عمومتهم في العويلية. عضته خديجة ليتوقف عن تقريعها، فلطمها على وجهها، فانفتح أحد الشقوق المغلقة البارحة وسال منه الدم. تدخلت الأم لفض الاشتباك باستبدال الطفلين في حجرها بأشقائهما في الخلف. وتطلّب الأمر التوقف عند قارعة الطريق بعد اجتياز المنعطف الجبلي الشهير بـ«عقبة الباكور».

دعت خديجة ربها دعاء السفر أن يهبها فَرَجاً قريباً، وأن يحررها من سجونها الكثيرة. وكما لو أنّ الدعاء فوق ناصية الجبل الأخضر الجميل يجعل المرء قريباً من السماء، ويجعل شهيّة السماء مفتوحة للاستجابة، هبّت ريح قوية دحرجت خديجة من مكانها وهوت بها إلى قعر الوادي.

وقعت خديجة في صينية راعي يأكل طبيخاً، فاعتقد حالاً أنّها علامة من علامات القيامة الصغرى، ربما لأنه كان يفكر في القيامة في تلك اللحظة. ولأن المرء في مثل هذه المواقف يتصرَّف قبل أن يفهم، هرب الراعي، تاركاً خلفه الأغنام والراديو وغالون عصير الفراولة.

وجدت خديجة نفسها حرة، لا تعرف ما تصنع بحريتها!

نظرت وانتظرت من يقلبها ويخرجها من الصينية، فمالت عليها الأغنام وشمّتها، ولعق الكلب الأبرص الطبيخ عن ساقيها. رأت السماء واسعة من دون جدران تحدّها، وشاهدت إخوتها على حوافّ الصخور باحثين عنها. حاولت مناداتهم، لكنهم كانوا مسرعين، ثم مرّت والدتها، منادية:

-خديجة، يا خديجة، وينك يا بنتي؟

ردت خديجة «أنا هنا في الطبيخة يا أمي».

ثم مرّ صاروخ رأته يلمع في الجو مثل بطن عظاية صحراوية. كان من الوضوح حتى أنها قرأت المكتوب على بطنه «صُنع في روسيا ٢٠١٣». ظلّلها الصاروخ بظلّه هي والطبيخ والأغنام والكلب وغالون عصير الفراولة قبل أن تسمع دويَّه، ويرتفع الغبار في الجوّ، وتركض الأغنام هنا وهناك هلِعةً، فتدوس الصينية وهي تهرب غرباً، فتقلبها وتدوسها وهي تهرب شرقاً، فتعيدها كما كانت.

شرق غرب
غرب شرق
جنوب شرق
جنوب غرب

كل هذا وخديجة إمّا في الصينية وإمّا تحتها، تفقد الوعي أياماً، ثم أشهراً، ثم سنوات، قبل أن تفتح عينيها في مستشفى الهيشة، كناجية وحيدة من عائلة أبيدت بكاملها، ولتكبر على مهل، ويَظهر لها حَب الشباب من جديد!

٢٣

بيت القصيد

كان سعيداً يلقي قصيدته العظيمة «العذراء والشعر الأسود» في مهرجان الشعر في الإسكندرية، حين همس له أحد أصدقائه بأن عليه اختصارها وإنهاء قراءتها بسرعة.

لم يفهم سعيد طلب صديقه، فكرر الأخير بلغة الصم والبكم «اختصر وانزل بسرعة. يجب أن نغادر. أصيب والدك بعيار ناري، وعلينا العودة فوراً إلى ليبيا».

حينها فقط فهم سعيد.

وانطلق من منصة الغزل إلى الفندق، إلى المطار في الحال. ارتجف هناك ساعات، ثم ارتجف أياماً من دون أن يحصل على حجز رحلة طائرة تعيده إلى ليبيا، فكل شيء تحكمه الفوضى، ولن ينظمه دفع الرشوة مهما تكن كبيرة.

كانت الرصاصة في المستشفى تنتظر عودته بقلق بالغ قبل أن تأخذ روح والده، وقد تلطفت بالشيخ حين سمعت نداءاته المتكررة وسمعت ردود أولاده:

- سعيد... هاتولي سعيد.

- غير قول يا باتي سعيد خونا وحبيبنا وقرعته زي قرعتنا والله على ما نقول شهيد.

- ما هذي هي اللي مخوّفتني!

وكان يغشى عليه بعد كل مناداة، أو بالأحرى يطلب من الرصاصة أن تفعل به ذلك، وقد تضامنت مع حاله وفعلت.

كانت رصاصة عاقلة جداً على الرغم من أن رجلاً طائشاً هو الذي أطلقها في مركز المدينة حين لمح جمهرة من الناس أراد لفت انتباههم إليه، فأفلتت إحدى الرصاصات وأصابت العجوز في دكانه. كانت لتأتي في مؤخرته وهو منحنٍ على صندوق معجون طماطم ينوي رفعه لولا أنه استدار بالصدفة فدخلت بطنه، وهذا من لطف الله؛ فرصاصة في البطن أفضل كثيراً من رصاصة في المؤخرة، ولاسيما إذا كان الرصاص عارفاً بأحوال مستشفياتنا.

إن الأمر برمته لا يحمل أي نية سوء ضد الرجل العجوز، إنما هو زهو رجل أربعيني بنفسه جاء على هيئة رصاص عشوائي.

خرجت الرصاصة، في اليومين الأولين، إلى بوابة غرفة الطوارئ لترى إذا

كان سعيد قادماً في الطريق إلى أبيه أم لا، ثم خرجت حتى البوابة الخارجية وراقبت الطرق المؤدية إلى المستشفى، وسألت عنه باعة الحليب والتمر والحلويات على مصاطبهم أمام المستشفى، فأجمعوا هم وسيارة الإسعاف التي تحاول اختراقهم إلى غرفة الطوارئ، على أن سعيداً ليس في المدينة، إذ لم يُرَ في أي حشد من الحشود.

خرجت الرصاصة، يوم الجمعة، من بطن العجوز باكراً لتتفحص طوابير الزوار الآتين بأكياس منتفخة. تعي الرصاصة أن عليها تأمل الوجوه الكالحة وجهاً وجهاً من أجل فك التشابه بينها وبين وجه سعيد، وعليها كذلك شمّ روائح الأطعمة الذكية التي حملها الزوار إلى أقربائهم.

لقد ودت في جولتها تلك لو أنها عامل من عمال المستشفى أو قطة من قططه المقيمة حتى يصيبها شيء من تلك الأطعمة الطيبة.

أما في أيام الأسبوع الأخرى، فكلما استطلعت البوابة الخلفية والأمامية للمستشفى، عادت خائبة الأمل. وكان أولاد الشيخ العجوز يصطفون كما هم في طابورين حول سريره في انتظار أن تُخطف روحه ويؤول إليهم البيت والدكان والمال الذي جمعه طوال حياته من كسور العملة التي كان لا يعيدها إلى الزبائن بحجة أنه لا يملكها.

توجّست الرصاصة من عدم مغادرة أولاد الشيخ المستشفى، واستمعت إلى أحاديثهم التي كان بعضهم يهمسها إلى بعضهم دون بعضهم الآخر في صالة التدخين.

وكان بعضهم الآخر مريباً أيضاً حين تعلو نبرة صوته ولا يستطيع التحكم

في خفوتها، فيخرج ليكمل حديثه خارج الغرفة. اضطرت الرصاصة إلى تلويث الجرح بالبكتيريا حتى تضمن تجمع أولاد العجوز حوله من جديد، وحتى لا يتكلموا في مجموعات يصعب عليها متابعتهم فيها أشتاتاً.

أحاطت الرصاصة الطيّبة بنياتهم الخبيثة التي يكنّونها لأخيهم سعيد؛ الوالد الشرعي لقصيدة النثر المشعور في ليبيا.

ورفضت خطف روح والدهم رفقاً به وبالشعر، وأجلت موته إلى حين رجوع ابنه من مهرجان الشعر في الإسكندرية.

قال أحدهم:

- ربما يتوجب علينا نقله إلى تونس.

اعترض أحد الأشقاء:

- وضعه لا يحتمل تعب المطارات والتفتيش.

تدخل آخر:

- من سيدفع نفقات نقله إلى تونس؟ بل من سيدفع «افرح بيا» للجمرك التونسي؟

تساءل آخر:

- وهل يأخذون «افرح بيا» في تونس حتى عن الحالات الاعتيادية؟

- أضحت «افرح بيا» من التقاليد العريقة هناك. أتاوة لا بدَّ من دفعها من دون مبرر.

- أنا موظف ولم أستلم مرتبي منذ ستة أشهر.

- أنا رب عائلة وخضعت الشهر الماضي لجراحة في مصر. والحقيقة ليس لدي إمكانية المساهمة معكم في مصاريف علاجه. أدعو لكم بالتوفيق.

- أنا كذلك أدعو لكم بالتوفيق.

- أنا أيضاً أدعو لكم بالتوفيق.

بكت الابنة:

- وهل نترك أبي يموت هنا بسبب سرقة كل شيء من المستشفيات عدا الموت؟ عار عليكم. لقد أفنى حياته يضحّي لتصبحوا رجالاً وتفتحوا بيوتاً وتؤسّسوا حياتكم. عيب أن تكافئوه بهذا الشكل!

- الله غالب.

الآخرون:

- الله غالب..

أرجل السرير :

- الله غالب.

المزهرية الخالية من الورد:

- الله غالب.

الممرضة التي تدفع مريضاً في غيبوبة خارج الغرفة:

- الله غالب.

مريض الغيبوبة:

- الله غالب.

الغيبوبة:

- كلا... مش الله غالب.

عادت الرصاصة إلى بطن الرجل متدبِّرة في حاله وحال أولاده. سيقتلون والدهم بتصرفاتهم الخسيسة، ثم يتهمونها بقتله، وهذا ليس عدلاً. عندما يتأكدون من قضائها عليه سيشرعون فوراً في تقسيم تركته بينهم حتى قبل أن يطفئ التراب بريق عينيه. هم لا يملكون أخلاقاً، هذه ذرائعية خسيسة.

فكرت الرصاصة كثيراً، واعتمدت على عودة سعيد من مهرجان الشعر لينقذ الموقف. وسألت اللهَ، في الثلث الأخير من الليل، أن يعيد سعيداً سالماً غانماً. ففي هذا الوقت الذي ينزل فيه الله إلى السماء الدنيا ليعطي كل سائل مسألته ويجيب دعاء كل داعٍ، يكون جميع أولاد الشيخ قد ناموا في كراسيهم.

أما أخوهم سعيد فقد عانى مرارة غموض المواعيد في مطار برج العرب، حتى ثلث الليل الأخير بتوقيت الإسكندرية، ودفع رشوة لتسريع عودته إلى ليبيا، فقُبلت الرشوة ولم يحصل على تذكرة سفر في أي طائرة.

بات ليالي في المطار حتى ظهرت لحيته وتمزق بنطاله من أثر الجلوس. ثم وصل إلى مطار الأبرق في ليبيا بطريقة غامضة يُرجَّح أنها بركة دعاء الوالدين، وكان المطار الوحيد في العالم الذي يعمل بنظام حلف يمين الطلاق؛ طلاق يعطي إذن المغادرة وطلاق يمنعه. وهكذا تخبط سعيد في تبدُّل أيمان المطار حتى هبطت الطائرة مع يمين هبوط، وانتقل سعيد إلى إجراءات يمين التفتيش والتحقق من شخصيته. فسعيد الواقعي لم يعد يشبه سعيداً الموجودة صورته في جواز السفر.

- عليَّ اليمين مش نفس الشخص.

- عليَّ اليمين هو نفس الشخص.

يمين يعطي إذن الدخول ويمين يتشدد ويمنع، حتى انهار سعيد باكياً وشدّ أحد الموظفين من قميصه قائلاً له:

- أتمنى أن تطلب زوجتك الطلاق منك في المحكمة حتى تشعر بالذل الذي مارسته عليّ بأيمانك.

ردّ الموظف بلطف: أنا لست متزوجاً بعد.

فقال سعيد غاضباً: إذاً، لماذا تحلف عليّ بالطلاق يا ابن العاهرة؟!

التفت جميع من يعملون في المطار إلى كلام سعيد، بل التفت المطار كله؛ حتى تلك الطائرات التي بدأت في التحليق، فجميع من يعملون في المطار أقرباء، وإهانة قريبتهم ووصفها بالعاهرة جرم عظيم يستدعي الثأر.

وصل سعيد بسرعة البرق إلى المستشفى بفضل هذه المشادّة، وما كان ليجد طريقة أسرع منها في ظروف ليبيا الحالية، فها هو بفضلها يرقد طريحاً في غرفة العناية الفائقة بجوار والده، وعدة رصاصات غير معروفة المصدر الطائش الذي أطلقها داخل المطار.

تعرَّفت رصاصات المطار إلى رصاصة لفت الأنظار ورصاصات أخرى آتية من عرس وحفل تخرُّج. فروت كل واحدة منها حكاية طيشها للأخريات. رصاصتان من بينها كانتا قد وُلدتا معاً في المصنع البلجيكي نفسه، وعبرتا البحر المتوسط معاً إلى ليبيا، ثم افترقتا لتتقابلا في مواجهة مسلحة بين أخ وأخيه.

كان، بشكل عام، تعارفاً طيِّباً مباركاً لعائلة الرصاص الرحيم جرى في أجواء ودية اتسمت بالدفء، بينما كانت درجة الحرارة في الخارج متدنية جداً. حتى إن عدداً من المشرَّدين والفقراء وبعض الحيوانات ورجلاً مريضاً ينتظر منذ أسبوع طائرته للذهاب إلى مصر... ماتوا بسببها.

ما يجعل نصف الكوب ممتلئاً هو أن اللصوص، وإن جعلوا المستشفى عاجزاً عن تقديم العلاج لأحد، إلا أنهم تركوه لمن ستخرج أرواحهم فيه دافئاً.

٢٤

موفد للإيفاد فقط

الطقس جميل والشجر مورق، وأنت تواظب على الصحو باكراً، لأنّك لا تنام كثيراً وجيداً. لم تعد ترى أحداً في مناماتك. فقدتَ وجوهَ من أحببت ووجودهم، وبات رأسك على الوسادة مجرَّد تقليد، لكنك تواظب على دروسك بشكل لائق، وتصمد متحاملاً على آلامك، متذكراً الحِكَمَ والأمثال الحاثّة على الأمل والتفاؤل. وتسمع الموسيقى في الصباح، لمزيد من الشحن الإيجابي، وأنت ترتدي ملابسك وتتأهَّب ليوم دراسي جديد. يدور حظك اليوم مع أغنية guerriero، أي المحارب. تتعطَّر، ترقص، تبتسم لنفسك في مرايا المصعد، وتبدأ يوماً مباركاً.

يتكلم الأستاذ بهدوء عن حوض البحر الأبيض المتوسط، مسقط رأسك ومسقط قلبك وأحلامك. عيناه كعيني الأميرة ديانا قبل نفق باريس، ووجهه نضرٌ كإنسانٍ جديد، وقميصه أنيق يحيط برقبة نظيفة.

يتكلم ونظره يجول في القاعة، ثم يعود إليك. أنت لم تعد موجوداً في إحدى المرات. جسدك الفارغ منك تركته لعيني الأستاذ كخيال الحقل وعدتَ إلى بنغازي، لتستكمل قصة أمس عن الرجل الذي قطعوا رأسه ورموه بعيداً عن جثته، وعن الجثة التي عثر عليها من دون رأس. يطلب منك زميلك قلماً، فتنظر إلى منبت رأسه وإلى جذعه، كأنّك تكتشف فجأة أنّ له رأساً عالقاً بجسده.

يعدو تفكيرك الشقي إلى بنغازي على الرغم من الدروب المغلقة، فالمطارات إلى بنغازي متوقفة، والطائرات محترقة، والطيارون هربوا خشية الاغتيالات، والميناء مقفلة، والأحياء السكنية يتبادل حصارها وتدميرها المتصارعون. تشارك في جنازة الرأس الذبيح من دون جسد، وتشارك في الصلاة على الجسد الذي حُزَّ رأسه ولم يجدوه. يُدفن الرأس الذي من دون جسد إلى جانب الجسد الذي من دون رأس. تسقط قذيفة على المقبرة فتفرِّق جمعكم. تتركون الموتى يموتون ويتمسك كلٌّ برأسه هارباً إلى جهة مجهولة. تعبر المسافةَ إلى بيتكم عَدْواً، أحياناً برأس وأحياناً من دونه، وأحياناً يسبقك رأسك لاستطلاع الطريق، ثم يخرج لك من أحد الأزقة ويلبس جسدك الذي يواصل الجري.

يبدو هذا الوضع هو الأنسب لسكان بنغازي الذين لم ينزحوا من مدينتهم بعد. الجميع يجري بجزء ناقص منه.

لا تتذكّر أنك فتحت باب بيتكم عندما دخلته، فأنت قد دخلته من موضع البلكون الذي سقط. لم يعد ثمة داعٍ للمفاتيح. تتلمَّس الطريق بيديك. تتفقَّد أهلك في الظلام: مرحباً، مرحبًاً... حمداً لله على السلامة. تشدّ على

يد شقيقك وتتخيّل وجهه كما آخر مرة رأيته فيها. تعانق جدّتك، أمك، أختك، وتتعرف إليهن من أصواتهن، أما الرائحة فقد توقف عملها، رائحتهن جميعاً «حطب تنور».

لقد نفد الغاز لديهم فطبخوا بالكهرباء، ثم قطعت الكهرباء تماماً فعادوا إلى عصور الحطب.

حطب... حطب؟

بنغازي نار وحطب نعم.

ليتها كانت حطباً بلا نار.

تبكي أمك فتمدّ لها منديلاً لا يصل إليها، وتطلق أختك تحذيراً عاماً بعدم الحركة لتفسح مجالاً لكوب الشاي كي يصل إليك. أنت تحب شاي الحطب. أما زلت تُحْيي عادتك تلك في إيطاليا، أم تراك تغيرت؟

تدرك أنّ الإنسان قابل للتكيف إذا تلاشت الخيارات أمامه. ها قد تفاهم أهلك فيما بينهم، ونشأت بينهم لغة مشتركة أخيراً لها الدلالة نفسها. جعلهم الظلام يتحاورون. يُسعدك هذا الانسجام المباغت وتتمنى ألا يذيبه وصول المولد الكهربائي بعد أسابيع من مصر. تريد أن يطول زمن السلم الأهلي بين أشقائك الذين فرّقتهم كرة القدم وجمعهم سقوط البلكون.

جدّتك أكبر مكتبة ناطقة باسم الموتى. تبدأ حديثها لك عمن ماتوا في غيابك، وكيف ماتوا. تشكّ في أنها ليست جدتك، وأن الذي يتكلم على لسانها ينتحل عضويتها في عائلتكم.

جن أسود، لا يوجد احتمال آخر!

أحد إخوتك، من العاملين في مراقبة الطقس المشبع بالصواريخ، يدخل ويخرج، ناقلاً أخبار القصف. أحياناً صوت هاون، هاوزر، قصف بالطيران. وفي أقل من ساعة يسمّي لك أحد عشر نوعاً من أصوات الأسلحة المتعدّدة الجنسيات، تُستخدم جميعها في قتل ذوي الجنسية الواحدة. تخرج الريح من جدتك وهي تنهض إلى الصلاة، فتصبح السلاحَ الثاني عشر لهذا اليوم. بوووم كبيرة، تصرخ أمك وتصرخ شقيقتك.

- يبو يحرقونا.

كبير إخوتك يصرخ فيكم:

- اسكتوا ووحّدوا الله.

توحِّدُ الله: لا إله إلا الله. وفي نهاية الشهادة، تدوس بإحدى قدميك سُفرة الشاي. تريد أن تتجه إلى باب المنزل، لكنك نسيت اتجاهات بيتكم. لقد غبت قليلاً وتغيّرت بنغازي كثيراً. ترتطم بذا الجدار وذا الجدار. يرجع شقيقك المغوار ويطلب منكم ألا تجزعوا، فالبوووم ناتج من ماسّ كهربائي في المخبز المجاور.

ليست أُولى العجائب أن يحدث لديكم الماس الكهربائي خلال انقطاع الكهرباء!

تحاول تجاوز أزمات المدينة والمشي في ربع شارع منها، فلا تكاد تفرّق بين الشارع والبئر.

يردّ لك زميلك القلم. تحاول أن تبتسم له بدلاً من أن تسأله كالمرّة السابقة «مَن مات؟». أنت لم تعد أنت، النضرُ النظيف العنق في الصباح. تنطفئ تدرّجاً وتكبر رقعة الصدفية في جسدك كخريطة بديلة لليبيا الوطن. تعطيكم عينا ديانا استراحةً للقهوة، تشرب فنجاناً ثم تطلب آخر من باب الاحتياط لا الارتشاف، لتظل في منطقة الصحو. تفتح الفايسبوك قليلاً، فتجد صديقتك نسيم الوادي كتبت: «تفو يا غرباوي». تشعر بأن الإهانة موجهة إليك، تبلع ريقك «ماذا هناك يا إلهي صبح يا فتاح»، بل قيلولة يا فتاح، بحسب توقيت ليبيا الآن.

يردّ البصقة المهندس الإستراتيجي من موسكو حالاً: «تفو عليكم يا بدو». تشعر بأن الإهانة موجَّهة إليك، فأنت تحمل في عروقك الدماءَ البدوية أيضاً. يردّ الجمهور الطرابلسي «شراقة معفنين»، فتشعر بأن الإهانة موجَّهة إليك، فأنت أيضاً شرقاوي وُلدت وعشت في الشرق. يردّ مراد من كندا: «يا شلافطية يا غرمبش»، فتشعر بأن الإهانة موجهة إليك، ويتحرك دم أخوالك في عروقك. يردّ علم الدين آغا: «يا يهود»، فتشعر بأن الإهانة طاولتك، فأنت مؤمن باليهودية كأحد أديان الله، والدين ليس سبّة. تردّ أمازيغية ورأسها مرفوع: «تفو يا عرب يا جرب»، فتشعر بأن الإهانة طاولتك لأنك عربي ولست مسؤولاً عن تمييز القرآن لأمّة العرب. يردّ أسد الساحل والصحراء: «تفو بربر حادرين من جبال أطلس صعاليك فرنسا»، فتشعر بأن الإهانة طاولتك لأن نصفك المستقبلي أصيل جبل نفوسة[1]. تبكي عينك اليسرى على إهانتك الأولى، وتبكي عينك الثانية على إهانتك

---

(١) من مناطق الأمازيغ في ليبيا.

الثانية، ويبكي قلبك على بقية الإهانات، فأنت مع هؤلاء لست أكثر من «سفود شاورما»، أينما استدار تحاوره النيران والسكاكين. تحاول أن تسامح أصدقاءك لأنهم لا يجدون غير الشتائم طريقةً يثبتون بها أنّ ليبيا بلداً متعدد اللون والعرق، وأنه كان سيكون ثراءً لها لولا جاهليتهم. تختفي ديانا تدرّجاً، وتتراكم وجوه مغبرّة مكفهرّة. كروش وربطات عنق تروح وتجيء أمامك. ملابس صاعقة وياقات غير نظيفة وشباشب ولحىً وتصريحات مخجلة تطالب بتقسيم الوطن بأسلاك شائكة!

تتقيأ دماً، ويهبّ الجمع لإسعافك. وضع طارئ يقطع المحاضرة. أنت كائن يفسد هدوء هؤلاء الأقوام الذين لديهم ما يفعلونه. وجوههم تحيط بك، تدنو وتبتعد، تكبر وتصغر، كأنك بين عالمين. يقول المسعف في العالم الأول:

-إنه ليس بخير.

ويقول سالم عفاريت[1] في الثاني:

-نهاركم أسود!

(١) جندي وطني من سكان بنغازي قضى فيها خلال قتاله الدواعش، عُرف باستماتة في قتالهم وتهديدهم بالويل والثبور.

٢٥

الأخبار كما تأتي من الوطن

أنا بخير ما لم تتصدّع الجدران بالقصف حتى الآن، ويتأثر السقف بالمطر ويتسرَّب إلينا الماء. أنا بخير، بل أنا في كامل الخير ما تخطَّتني هدية كهدية جاري العام الماضي. كان لطيفاً وكثير التودّد على غير عادة الرجال الليبيين، حاول التسلل إلى قلبي عن طريق السقف، فاشترى لي وعاءً بلاستيكيّاً أحمر لتوقّي الرشح، رسم في داخله قلباً وأرسله إليّ مع صغيره.

شعرت بالإهانة فكسرت الوعاء، وقصدت وضعه في مكانه الصحيح قرب كيس القمامة المنزلي كي يراه، ثم وقفت بكامل أناقتي وزينتي تحت الماء، وناجيت رجلاً لا أجده في ربعنا الخالي «ما دام يجذبني وجودك فلن أرى الفراغ. ما دمت أبحث عنك فلن أتعثَّر بسواك».

ما زال سقفي عالياً إلى اليوم في بلاد ليس لحلم فيها أن يفتح عينيه من دون أن يفقأهما أحد!

بدأت أرسم بعد سنوات عجاف متتالية، وزاد اهتمامي، في الوقت نفسه، بأشعار آن سيكستون. أقر بأن ذلك غير إيجابي أبداً، وأرجو ألا يكون من قبيل ما حدث لفرانشيسكو غويا في أواخر أيامه إبّان الحرب الأهلية في إسبانيا. لاحظت أنني أرسم نفسي في لحظات حزن ساحق مثله، وأعلّق رسوماتي في المطبخ مثله، حتى إنّ إحدى اللوحات تصاعدت عليها أبخرة الطهو فغيرت ألوانها وتقنيتها، لربما تجد ناقداً فنيّاً فذّاً يقول عن فلسفتها اللونية الكثير، جاهلاً أنّ أبخرة الطنجرة هي التي لوَّنتها على ذلك النحو من الإتقان المعقَّد، حين كنا نطهو على الحطب لانعدام غاز الطهو.

يجعل النقدُ النقّادَ يقولون أشياء غريبةً كما لو أنهم يعتمرون على رؤوسهم طناجر، ليس في وسع أحد رؤية البخار المتصاعد منها!

أردت أن أنشئ مشروعاً صغيراً. أردت تجربة خطوات واقعية تجاه حلمي. مضى العام الأول للثورة من دون صراعات دموية، فقررت إجراء تعديلات في البيت بإزالة بعض جدرانه وتحويره للحصول على صالة عرض صغيرة، يعلوها سقف زجاجي يشكل أرضية لفضاء رسم، وإذ بالميليشيات تعمل معي في الوقت نفسه في الطرف الآخر من المدينة، وتشرع في خطف الأجانب وذبحهم. لم أعد أجد عاملاً يردم لي حفرة. صرنا نعيش في بيت نصفه مهدَّم، وتوقف المشروع عند مرحلة الركام والندم والزكام. وبينما ظلَّ الركام في مكانه، توسَّع الندم خارج حدود البيت المحفور، شاملاً هو والزكام الأهلَ والأصدقاء الذين لم يستطيعوا تحّمل برودة البيت و تجاويفه المعتمة.

لديهم حق. ما كان يجب أن أشرع في شيء إلا بعد وضع دستور للبلاد بديلاً من دستورها المجمّد، وتأسيس جيش وشرطة، وعودة المليارات الليبية المنهوبة، واستقرار دولة اليمن السعيد، والقضاء على مرض الكسل.

تُرى، هل كان على معماريّ الرب - أنطوني غاودي - أن ينتظر عمراً حتى يتغيَّر ذوق سكان برشلونة ويستنكهوا عمارته، أم كان عليه هو أن يكون التغيير؟

هناك خبر مفرح للغاية، فقد اشتركنا مع شركة محلية ناشئة لجمع القمامة في مقابل دفع مبلغ شهري. هكذا استبعدنا فرضية انتشار الطاعون. فالمدينة تختفي تدرّجاً تحت جبال القمامة وحطام المنازل. جاؤوا وكتبوا أرقاماً على البيوت. فرح الجيران وأخرجوا دلاء القمامة، وشعرنا بأن الحياة تعود إلى الشارع، كتبوا على بيتنا الرقم ٩ بشكل كبير. وصرت أخرج كل يوم، لسعادتي بهم، وأنشد معلقة «إن شاء الله كل يوم الشركات في الزايد والكناسة في الناقص».

لكن، ما هي إلا أيام حتى صارت القمامة في تزايد وأعمال الشركة في تناقص. راقبنا الوضع لمعرفة العلة، فرأينا أناساً يُحضرون قمامتهم ليلاً ليلقوا بها عند البيوت المرقّمة. تصدّى لهم ابني الذي ينام النهار ويصحو الليل بطوله، فشهروا عليه أسلحتهم، فقال لهم، مغيراً التكتيك:

- تفضلوا الشارع شارعكم ونحن تحت أمركم.

وحين سألته لماذا ينام على غير عادته في الليل، تكوَّم تحت البطانية جيداً ثم أجابني:

– من العار أن يموت الرجال في مواجهة داعش وأموت أنا بسبب القمامة.

منذ تلك الحادثة، اشتريت طلاءً وتحيّنت الوقت الذي لا يأتي فيه الناس بقمامتهم (احتراماً للخصومة)، ثم دهنت سور المنزل بنفسي حتى اختفى الرقم ٩ من جداري ومن حياة الشارع، وصرت أتحيّن مجيء السيارة والعمال لأقول لهم شخصياً: أنا الرقم تسعة، تفضّلوا خذوا فضلاتنا إن تكرّمتم.

ثمة عامل لطيف جدّاً بينهم، يبدو أنه سيفقد عقله ويجنّ قبلي، قال لي «حاشاكِ»، وظل يردِّدها سبع عشرة مرة وهو يحدّثني عن غرق العاصمة في القمامة، وعن خشيته من انتشار الطاعون. سألته: هل تذهب للعمل في طرابلس كذلك؟

قال: كلا. وشرح لي أنه يعني بنغازي عاصمة لليبيا مع طرابلس، وفقاً لدستور البلد المعطل، ووفقاً لحجم القمامة التي تجمع المدينتين.

يبدو لي إنه ملمّ جيداً بقواعد تأسيس البلد الذي ينظفه أكثر من القمامة التي تحكمنا.

فتحت إدارة البعثات أبوابها يوم أمس، بعد أن خطفت مجموعة مسلحة مدير الإدارة الجديد. أعتقد أنه بعد عودته من شهر العسل لدى الميليشيات الخاطفة، ستصدر عنه قرارات كثيرة غريبة، وتسري على الرغم من غرابتها. أتمنّى أن يكون اسمي في القرارات المقبلة، فلطالما انتظرنا تسريع إجراءات الابتعاث من دون تعذيب من أحد أو مساومة من غيره، لكن قدّر الله وما شاء فعل.

يعلم الله كم أكره أن تكون مصائب قوم عند قوم فوائد، لكني مجبرة على قبول فائدة وضع المدير على صفيح ساخن من خاطفيه، إذا كانت تلك إحدى أنجع الطرائق المؤدية إلى روما من ليبيا!

بورصة سعر البيض في ارتفاع، فقد أصبح ثمنه يناطح سعر اليورو والدولار. فطائر الدجاج يعيش واقعياً معنا أزمة مزدوجة نتيجة الانفلات الأمني. فالدجاجات أكثر المخلوقات المتعَبة من وجودها هنا، ولا أعرف لماذا لا تعتبرها ولو منظمةٌ عالمية واحدة من منظمات حقوق الحيوان، حيواناً، وتدافع عنها؟

إن الدجاجة فاقدة لوجودها معنا، وممنوعة من احتضان صغارها منذ اشتعلت الحرب الليبية - الليبية، وتتواصل مع الديوك فقط لمصلحة بقائنا؛ أي أنّ جزءاً مهمّاً من حياتها تعرَّض للبتر أو انقرض في هذا الركن الكئيب من العالم. لا شكَّ في أنها تسمع مثلنا لنشيد «سوف نبقى هنا حتى يزول الألم»، وتفهم مدى فظاعة ارتباط البقاء بالألم، أكثر من الحمير الذين جعلوه كذلك.

هناك مناوشات مسلَّحة تحدث باستمرار تحت الجسر القريب من بيتي، نسمعها مثل حفل فني ساهر يوماً تلو الآخر، ثم نسمع عن موت عنصرين أو ثلاثة قبل أن تعود المياه الآسنة إلى مجاريرها، ثم تحدث مناوشات أخرى يذهب نتيجتها عنصران أو ثلاثة إلى الآخرة، وتعود المجاري من جديد إلى مجاريها.

أُوشك أن أُصاب بالجلطة لولا الأسبرين والاستماع إلى فاطمة الحمصة.

صرنا صديقتين بعدما كنت لا أطيق سماع صوتها وصراخها. كنت أستمع لنينا سيمون وفاغنر وسيزاريا إيفورا، ثم تعدَّلت أفكاري وذائقتي الموسيقية بخصوص الصراخ، بشكل عام. ربما أقنعني الآن ما قرأته عن أنّ الأذن البشرية تشهد تبدلاً فيزيولوجيّاً في العصر الحاضر، فعالم الأصوات من حولنا يتبدَّل، وعلى المرء أن يأخذ في اعتباره أصوات الشارع في المدن. لذا، أخذت في اعتباري أنّ رزيم الحمصة، أفضل من شخير الهاون، ومن هدير الميراج المنخفضة الارتفاع، ومن أصوات لعلعة الرصاص، ومن ثاني أوكسيد القنوات التلفزية.

احترق بيت عمي سعيد. كانت الكهرباء مقطوعة منذ أسبوع، وعندما جاءت كانت أقوى من معدلها، فأحرقت البيت!

بعض الظلام نعمة، لكن عمي سعيد دائماً عجول، لا يتوقف عن الدعاء أن تأتي الكهرباء، حتى إنه صلّى لعودتها سبعمئة ركعة، والنتيجة استجابة مدمِّرة!

ابن خالتي الذي ذبحه الدواعش في درنة ورموا برأسه في مسجد الصحابة، حصل رأسه فقط على جنازة مهيبة. تذهب خالتي كل يوم إلى المقبرة للبكاء عند رأسه، وتحسد البرص الذي رأته يجري على قبر قريب، لأنه متى فقد ذيله يستطيع أن يعيش حتى ينمو له آخر جديد.

خالتي فقدت عقلها عند رأس ابنها.

تأكل الكلاب في بعض أحياء بنغازي الجثثَ. رأيت من نافذة الحمام كلباً يحمل يداً بشرية يعدو بها بعد انفجار لغم وتشظّي الضحية وطيران

أشلائها، فدعوت الله إذا كان يجبني أن أموت قطعة واحدة؛ أن يسقط البيت عليّ ويطمرني تحته، فسقط بيت الجيران وطُمروا تحته... أموت الآن رعباً، من ألّا يجبّني الله مثلهم!

خيرية العصبية التي كانت قبل الحرب عصبية فحسب، جنّت الآن وتخلصت من غضبها الأحمق. وعلى الرغم من النزوح والتشرُّد والأزمات فإنها وجدت أناساً ينادونها باسمها الجديد «خيرية المجنونة»، يبدو أنّ المآسي لا تشكل عازلاً للتجاهل أو النسيان، أو تغيرنا من العمق.

أوصل الأولاد، يوميّاً، إلى المدرسة. ابني الكبير لا يذهب إلى الجامعة، هناك اعتصام طويل الأجل بسبب مطالب بزيادة الأجور، الجميع يبحث عن حجّة كي لا يعمل أو يدرس، هذا ما يزيد من متاعبي معه. يُمضي وقته نائماً، ولا يصحو لمساعدتي في شيء. إنه يذكّرني بأنانية والده، يرفع شعار ستيفن هوكينغ: «مهما ظهرت الحياة صعبة فهناك دائماً شيء يمكنك فعله والنجاح فيه». وهو ينجح في النوم طوال النهار!

أكرهه أحياناً، على الرغم من أنه ابني، كأنّ روح لوحة غويا السوداء «ساترن يأكل أبناءه» تجسّدت فيّ، وتحضر فيّ أحياناً روحُ امرأة «مذبحة الأبرياء» لبول روبنز، وهشاشةُ «امرأة غورنيكا» لبيكاسو، و«حالاتُ أمومة» لكيتي كولفز، وفزعُ أمّ نبي في القرآن ألقت بطفلها في اليمّ. فتتشابك عندي الأمهات، ولا ينتزعني مني إلا صوت ابنتي، منادية «ماما، تعالي معاي، نبي نلعب برّه السياج وخايفة بروحي».

أرافقها، ليس فقط كأنيس أو لمبة أو شمعة، بل كفضاء آمن، أرسم لها

مربّعات على الأرض وأجاريها في اللعب في اجتيازها، مربَّعاً مربَّعاً، وعلى نحو ندفع فيه قطعة حجر صغيرة بقدم واحدة، حتى وجدتني ذات مرة أقبّل قطعة الحجر كما تفعل الطفلات تيمناً بالفوز.

ونسيت نفسي، ذاتَ إغماضة عين، وقطعة الحجر على فمي. وعندما فتحت عيني ألفيت ابنتي تنظر إليّ باستغراب. بدت لي عجوزاً كبيرة لديها سن واحد في فمها، وبدوت لها أكثر من عجوز.

سألتني بارتياب: ماما... كأنك كبرتِ عشر سنين توا؟

آاه، ويلي، كيف يشيخ الصغار باكراً في هذا البلد، ويندم الكبار لأنهم كبروا!

لديّ ألم، لا أستطيع تحريك يدي نتيجته. قررت، بعد خطف مدير المستشفى، تجربةَ العلاج بالحجامة، في مركز من مراكز العلاج الشرعي التي انتشرت بعد الفتوحات الإسلامية الحديثة، وتخصَّصتْ بعلاج الحسد والمس والبغضاء والسرطان والتكلُّس المهبلي وتكسُّر الصفائح. الحقيقة أنني كنت محبَطة أروم وقف الألم بأي وسيلة. صادفتني في الطريق جنازةٌ، فركنت السيارة وقرأت الفاتحة على روح الميت، ثم واصلت دربي. وجدت باب المركز مقفلاً بسلسلة غليظة وقُفل. سألت الحارس، فأجاب بأنّ الشيخة التي تعالج النساء أُصيبت برصاصة طائشة أمس الأول، وهي في طريقها إلى بيتها، وأن الجنازة التي عبرت الطريق منذ قليل هي جنازتها. ركبت سيارتي بسرعة. لم أُرد العودة إلى المنزل خوفاً من رصاصة طائشة مختصة بالعائدين إلى منازلهم، فأدرت راديو السيارة للتمويه وقصدت طريقاً معاكسة. كان

المذيع الديني يطلق رصاصاً عشوائياً من نوع آخر: بنغازي أمن وأمان، بنغازي تنتعش.

كانت السيارة تعرف وحدها إلى أين تأخذني من دون تقدير مني في بنغازي التي تحتضر، وقذفتني بعد ساعة في البيت وركَنتْ نفسَها في المرأب. كنت أرتجف وأنا أدهن نفسي بزيت الزيتون الدافئ، وأطلب من ولدي أن يغطيني ويتركني وحيدة.

كنت أقرب إلى راديو السيارة مني إلى نفسي. أقول لنفسي أنا بخير ما دمت حية. فيا له من خير أني لم أمت بعد! يا له من خير يوازي تعاسة كاملة. لا أشك في أن من اخترعوه لا يختلفون عن وكالة ناسا للفضاء ما تلبث أن تعثر على أماكن جديدة في الكون، كلما ضاقت الأرض بساكنيها؛ أو لمزيد من الواقعية السحرية، مثل الجيش المصري الذي اكتشف علاجاً للأيدز والتهاب الكبد الوبائي وأنفلونزا الخنازير، في إثر تصاعد موجة الرفض الشعبي لعودة حكم العسكر. فهل يمكن لجيش لم يهزم أحداً أن يتحول إلى محاربة الأمراض؟

وهل لناسا أن تشغل نفسها بالبحث عن شيء أكثر جدوى من اكتشاف الكواكب الجديدة. ولتكن الخنازير، الخنازير التي شفاها الجيش المصري؟!

آه، لكم يبدو انتظار الخير معقَّداً أكثر من البحث عنه، أو إثبات وجوده!

تُحسِّن الحرب وجهات النظر في أشياء وتقبِّحها في أشياء، فما شكّل بالأمس عاراً قومياً منع سمية بنت الجيران من القبول بـ«حمو جوامع» زوجاً لها،

سقط اليوم بعد أن ألّف الناس ما هو أسوأ منه، فسمية ارتبطت أخيراً بحمو، إذ صار قديساً مقارنة بمن تحولوا إلى ميليشيات خطف قتل، وسلخ، وتعذيب، وهدم بيوت، ومواهب عدة لا تنضب.

أوَليس هذا سورياليّاً، أن يرفض حمو العمل مع الميليشيات، ثم تقبض عليه الميليشيات المطالبة بتطبيق شرع الله، وهو يسرق شباشب الجامع؟!

كانون أمي فيه بياض لكن ناره طافية[1].

ذاك بعض مما أنا فيه من: يانا يا بوي يانا يا بوي الشيباني[2]، بلغة الحمصة، وبلغة برتولت بريخت (وعلى هذه الحال مضى وقتي الذي مُنحته على الأرض)، فلا تنسَي يا صديقتي عندما تكتبين عني، أن تخفي ملامحي وما يشير إليَّ: لون عيني الغارقتين في العسل والحزن؛ أنفي الذي يشبه أنف كاترين دونوف، وشعري الذي يشبه خيوطاً حريرية لامعة. اجعلي ملامحي باهتة كملامح امرأة عنّفها الميلاد والحياة في ليبيا، وهي لا تحثّ على طلب تحقيق العدالة الإلهية على الأرض وعدم تأجيلها إلى ما بعد، إلا لخشيتها حين تطأ روحها المسحوقة الدار الآخرة، أن تجد نفسها مع مجرمي الدار الأولى بعد أن سامحهم الله، لمجرد أنّ أحدهم سقى كلباً يلهث من شدة العطش وهو راجع من الكازينو، أو لأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله في الأوقات التي يعطل فيها الكازينو. أضيفي إليّ كذلك مسحةً من السعادة والفرح من أجل أمي. من أجل أمي فقط أريد أن أبدو سعيدة،

---

(١) البياض هو الفحم.

(٢) تستعمل في بعض الأغاني الشعبية الليبية بواقع كلمة «دي دي واه» الجزائرية

فأنا أدرك جيداً أنّها ستبحث عمّن يقرأ لها مقالك الأسبوعي وتفتش عن شيء ما يخصّنا في ثناياه. ثم ستنظر إلى الفراغ بنظارتها العاجية الكبيرة، كمن فهم كلّ شيء، وتسأل:

-هل تبدو ابنتي سعيدة في حياتها؟

فاجعليها، لمزيد من التمويه، تمسك بمروحة يدوية مزركشة، بدلاً من كيس الدواء، وعشرة مفاتيح صدئة لخزانة واحدة.

حكاية أول سجل مدني في الكون

لم تكن النباتات قد وُجدت بعد، والبحر تكوّن لاحقاً. أمّا المبروك سالم خليفة، فهو أقدم من الريح، ومن التاريخ، ومن المسيح.

يُروى من دون تاريخ، ومن دون راوٍ، أنّ المبروك سالم خليفة كان يذهب إلى جبال تيبستي لتعلم القراءة والكتابة. وكان يمر، في طريقه إلى هناك، بجبل نفوسة من دون أن يترك عليه حرفاً واحداً يؤكد مروره وقابلية أحجاره للرسم والكتابة.

أنهى المبروك الأول تعلّمه هناك في مجاهل الصحراء الكبرى، وحمل شهادة في كيفية تعبيد الزميتة[1]، ثم قفل راجعاً إلى الشمال بحزمة من الأحلام والكلام؛ منها تأسيس بحر والشروع في النخاسة والتهريب. فهذه المسافات الطويلة لا بدّ لها من أن تُجتاز على نحو ما.

(١) السويقة، والتعبيد جعلها بهيئة قبضة الكف.

كان البحر آنذاك عبارة عن مساحات مفروشة من الملح والسمك المقدّد قبل أن يسكب الله عليها اللون الأزرق والماء والحياة لتتحول إلى بحر متماوج لأجل عيني المبروك سالم خليفة، ثم ليمكنه الله من تهريب البشر والوقود والسلع المدعومة، وتأثيث البحر بالجثث.

تقول الحفريات إنّ المبروك سالم خليفة عبارة عن حساء كوني أُلقي على ساحل البحر الليبي، وإن لا علاقة له بأساطير الخلق المعروفة. إنه ابن غبار الذهب والنجوم وتراب الأحجار الكريمة الذي عجنته الملائكة وكوَّرته إلى وحداتٍ بيّتتها في نجوم ملاحات زوارة، كي تبدأ في تجميع أول إنسان ليبي أصلي هناك لا تربطه قرابة بأي بشر مخلوق من طين.

تقول الأسطورة، حين لم يكن التاريخ قد وُجد بعد، إنّ الملائكة ذهبت من أجل المبروك سالم خليفة إلى بن قردان على الحدود التونسية - الليبية، وجاءت بماء بئر تُدعى «افرح بيا»، فوجدت الحدود مغلقة كعادتها، فاضطرت إلى الالتفاف والدخول من معبر ذهبية للتهريب، وهو ما يعني أنّ الماء تأخر في الدخول إلى مكونات أول ليبي يتم تجميعه، لذا وُلد جافّاً قاسياً، سريع التكسر، دائم الانجذاب إلى «افرح بيا»[1]، و«افرح بيا» دائمة الانجذاب إليه.

كان الوقت طويلاً في ذلك الزمان، وكانت الملائكة تتسلى بتلك القطع المتشكلة على الحدود الليبية ـ التونسية. فتارة، تقسمها طوباً وتقوم بتجفيفها على ناصية جبل نفوسة الأشم فتتشرّب هواء البحر الليبي الحديث الميلاد،

---

(١) تسمية الرشوة في تونس.

وتارة تجعلها طوبة واحدة تتدحرج من أعلى الجبل إلى أسفله فتجمع ما تجده في طريقها إلى المنحدر.

ذات يوم، وبينما كانت الملائكة تأخذ قسطاً من النوم، سقطت قطرات من ندى الصباح الجميل على الطوبة فتحركت وتكسرت قشرتها الخارجية وخرجت منها رِجل صغيرة من الذهب الخالص، ثم يدٌ صغيرة من الذهب، ثم لسانٌ فشفتان. وهكذا تواصل خروج الذهب حتى أعرب أول خليفة لله في الأرض ليبي عن ظهور الذهب في زوارة.

اختبأت الملائكة وراء الجبل من فظاعة صوت الانفجار العظيم لمنجم الذهب البشري، وأخذت تراقب الكائن الغريب الذي انشقت عنه الطوبة، ثم اختبأ الجبل وراء الملائكة وراقب أيضاً.

وهكذا مضت الساعات الأولى في عمر الإنسان الليبي الأول، والجبل والملائكة ينظرون إليه. ويهابونه ويستغربونه، كأنه تشرّب الطاقة الناتجة من تحديقهما فيه بإعجاب واستغراب ومهابة.

إعجاب، واستغراب، ومهابة، ستلاحقه وتلاحق ذريته مدى الحياة.

قالت الملائكة للجبل:

- كنه منفوخ هكي؟

رد الجبل:

- ممكن مسَّه الشيطان.

قالت الملائكة:

- الشيطان يتحشم ما يمسش هكي!

قال الجبل:

- اسكتي راه يسمعنا.

وسمع المبروك سالم خليفة همسهما، فتساءل قائلاً: من هناك؟

وكان عابساً متشنّجاً لقلة الماء في تكوينه، وإذ به يقتلع صخرة من الجبل ويقذف بها الصوت الذي سمعه.

- اطلع وبان. علاش كارس؟ جاي في ركني ومشاركني. هذي أرضي شني جيبك ليها. أني موجود فيها قبلك يا عديم الأصل.

حاول الجبل أن يصمد بعد نزع الصخرة منه وألا يتحرك سنتيمتراً واحداً من مكانه خشية أن يقع على طرابلس الآمنة، بينما لزمت الملائكة التسبيح والدعاء كي يحميها الله من ردود أفعال المبروك سالم خليفة.

قال الجبل:

- غير وسّع بالك يا مبروك رانا قبلك هنا وشفناك وأنت تفقس من الحيطة اليابسة.

ثارت ثائرة المبروك سالم خليفة الذي لم يرقه كلام الجبل عن اليباس، فرفس الجبل بقدمه القوية فتألّم الجبل، وصاح: آخ، آخ، آخ!

وتساقطت منه الصخور إلى السفح، وسُمع صراخها وهي تهوي إلى قرار سحيق. هربت الملائكة لأنّ لديها أجنحة، أمّا الجبل فلم يستطع لثقله ولعدم وجود مكان في العالم يستقبل جبلاً لاجئاً.

تكاثر المبروك سالم خليفة بانقسام الخلية على نفسها. على كل طوبة تخرج منه أن تعيد الانقسام على نفسها، ثم تتوحّد مع خلية من الطوب الآخر لتكوين مجتمع طيب نقي طاهر تسوده قِيَم الطوب. وهكذا، تكاثر الإنسان الليبي الأصلي المحافظ بطريقة تميّزه من سائر أبناء آدم المخلوقين من تراب.

كان الواحد منهم إذا دخل المربوعة، ورأى الشيوخ مجتمعين بعباءاتهم يتحدثون في انسجام، نظر إليهم نظرات متفحصة، واحداً واحداً، ورد العباءات التي يرتدونها إلى أصلها، فرأى خرافًا تتبادل الأحاديث. ثم ذهب إلى والدته التي تجهّز البازين[1]، وقال لها:

- يوجد ٦٦ خروفاً في المربوعة تنتظر الأكل.

وكذا كانت الحال بالنسبة إلى الإناث الجالسات في أردية الحرير. كلهن عبارة عن دود قز، وخواتم الألماس في أصابعهن عبارة عن فحم متحجّر من آلاف السنين. ليس هذا فحسب، فسندويش البيض عبارة عن الدجاجة التي أكلت دود الأرض وهي في طريقها إلى أن تصبح كتكوتاً، قبل أن تعترضها يد الإنسان وتضعها في الطاجين.

رفض المبروك سالم خليفة العالم حوله، لأنه يفتقد الأصل الرفيع، وأخرج

(١) أكلة ليبية تقليدية.

عبود الزميتة من جيبه، وقال لنفسه: من الأفضل أن أبقى على طعام أجدادي، فهو أصيل. والبقاء للأصلي.

فرد عليه عبود الزميتة شاكراً فضله، وأنه يشعر بالفخر حقاً لأن المبروك سالم خليفة هو من يقضمه.

أما رفض المبروك سالم خليفة سندويشَ التونة، فله حكاية أخرى؛ ذلك بأنه ما إن أخرج السندويش من الحقيبة حتى خرجت له قدم أو عين مهاجر غير شرعي لقي حتفه غرقاً. بل إن يد إنسان أفريقي ما زال يحتضر امتدّت إليه من الشطيرة ذات مرة، محاولةً خنقَه. لذلك، كره التونة بدلاً من أن يكره النخاسة.

استمر المبروك سالم خليفة في كل عصر يناطح الوقائع والأحداث ويردّها إلى منشئها الأول على الأرض، ويُصدر شهادات العراقة والخلوّ من العراقة للآخرين، حتى تحوّل إلى قابلة للكون.

كان يصعد الجبل ويطرح سؤالاً على الوادي من فوق، ويسجل الإجابة التي تأتيه فوراً.

-يا وادي هذا ليبي ولّا مش ليبي؟

فيردّ الوادي:

- مش ليبي، مش ليبي.

من هنا، تأسّس أول سجلّ نفوس في ليبيا القديمة قبل وصول هيرودوت.

ثم حلت الكارثة مع مجيء العرب وطردهم الرومانَ والحلول مكانهم، وحدوث أول جريمة لا يمكن للمبروك سالم خليفة غفرانها.

لقد خُيِّر بين الإسلام ودفع الجزية، فاختار الإسلام ظناً منه أنه سيتخلص من الدفع، غير أنّ ذلك تطلّب امتثاله للختان، أي للتقصير فقصّر.

هل تعرف ما معنى أن يُختن الإنسان الأصلي؟

كان يهذي من حمّى التقصير أكثر ممّا يلزم.

أجابه المختون الآخر قربه:

- أن ينقص من تكوينه الأصلي شيء، أن تتحوّر النسخة النادرة وتتبدّل مدخلاتها ومخرجاتها، فاللعنة على العرب الذين وضعوا بصماتهم على كل شيء؛ حتى على ذريتنا المقبلة.

كان من عادة المبروك الثالث عشر الميلادي المشي خلال النوم، لذا ظل يمشي، إلى أن خرج إلى الشارع ذات مرّة، وكانت هناك ثورة... فالتحق بركب السائرين الذين ظنوا أنه صاحٍ وظن أنهم على عادته في المخالفة نياماً.

كانت الجماهير تهتف: مطلبنا الحرية... مطلبنا الحرية. فهتف المبروك الثالث عشر الميلادي هتافه الباطني: مطلبنا وقف الختان، مطلبنا وقف الختان.

قبل أن يصحو من الضرب المبرّح، ويغيّر رأيه، هاتفاً: مطلبهن... مطلبهن.

من بخله لم يبكِ على نفسه، وأجّل ذلك حتى يموت إنسان مخلوق من طين.

٢٧

حقل الدم

رآه الشارع في الثانية صباحاً يحاول إنزال الرجل من سيارته وسرقتها منه. حاول الرجل ثنيه بهدوء، فاعتقد السارق أنه يريد كسب الوقت ومباغتته، لذا سارع وأطلق النار عليه من مسدس جديد اشتراه أمس الأول من سوق العشية.

لم يتفاجأ المسدّس من تحوُّل عملية سرقة إلى جريمة قتل، فقد سبق له أن قتل خمسة أشخاص عن قصد وترصُّد، ثم تمّ التخلّص منه كسلاح للجريمة وبيع في سوق العشية.

كان المسدّس راغباً في أن يتوب ويستقيل، لكنّه لم يُعطَ الفرصة لذلك. ربّما تتحقق رغبته إن احتفى الناس بأصالتهم وعادوا إلى التقاتل بالحجارة.

تجمّد الشارع من الرعب، إذ لم يسبق له أن رأى مسدّساً جريئاً إلى هذا الحد. ولا شاهد جريمة تنفَّذ بأعصاب باردة. أصيب بسكتة تجمّد في إثرها دم

الضحية سريعاً. كما طقطقت عظام نافذة شُرِّعت للهواء وأوصدت نفسها بنفسها، وأُطفئت المصابيح الثلاثة الوحيدة المضاءة فيه حداداً على الواقعة.

صار شارعاً حزيناً على رجل قُتل فيه بلا حول ولا قوة.

وضع القاتل مسدّسه الجديد في حزامه، وسحب الضحية خارج السيارة وألقاها على الرصيف. كانت المدينة مظلمة ونائمة ومختبئة من نفسها في نفسها ولا يُسمع فيها إلّا نباح الكلاب وأزيز أعيرة نارية لأشخاص يقومون بالسطو أو القتل بين وقت وآخر. توسّل صاحب السيارة قاتله: أرجوك لا تدعني أموت هنا، أنا مسلم وأنت مسلم.

لم يردّ عليه. اعتلى كرسيَّه الذي لا يزال دافئاً، وقاد السيارة بطمأنينة، متجهاً إلى بيته. تجاوز الإشارات الضوئية المعتمة، وتجنَّب الشوارع غير الرئيسة حتى إذا ما تعرض له قطَّاع الطرق أمكنه الفرار منهم وطلب النجدة من الشوارع المسكونة لأنفها بالناس.

سار بحذر في الشوارع التي لم تره يقتل الرجل ويسلبه سيارته.

توقف عند شارع فرعي شهد من قبل جريمتين، نزع لوحتي السيارة ورماهما فيه. توقع الشارع أن يرمي إليه بجثة، ثم تبيَّن أنه تسرّع وأساء الظن بالرجل الطيّب، فاستغفر الله ثلاثاً لأن بعض الظنّ إثم.

كان القاتل اللص مرِناً وقد تدرّب على هذه العملية من قبل. لذلك، لم يطل وقوفه في الشارع الفرعي من دون إنارة مصابيح السيارة. كانت السيارة مثل الحمار الذي لا يشعر بفقدان صاحبه، فلم تحرن، ولم تتوقف، ولم تتعطّل

فجأة، ولم تنقلب. كانت سلسة ومنفتحة حتى على خيار التهريب إلى مصر بلوحتي سيارة أخرى أقل شؤماً منها.

بل إنّها أوحت إلى القاتل السارق بأنَّ في الإمكان إيجاد سمسار مصري ممن ينقلون السيارات الليبية إلى غزة، سيشتريها منه على عجل، وهكذا سيغسل المال في مصر ويشتري به شقة، ثم يعود إلى ليبيا ليواصل وقوفه أمام البنك مطالباً براتبه وعلاوة الأسرة والسكن.

طرب القاتل للفكرة، وأدار مذياع السيارة على مداه حتى كاد قتيل آخر في شارع آخر أن يُصاب بالصمم. كانت سورة الكهف بصوت قارىء أخن. فتش في «التابلوه»، فوجد مبلغ ألف دينار جاهزاً في انتظاره، وبيضة شوكولاتة كِندر.

سبحان مقسّم الأرزاق!

أكل البيضة ووضع يده تحت كرسي القيادة مستكشفاً، فلم يجد تلك العصا التي يتسلّح بها الرجال عادة لردّ الظلم أو البدء به.

قال في نفسه: من هذا الغبي الذي كأنه لا يعيش معنا، يترك نفسه أعزلَ حتى من عصا يهشّ بها على نفسه؟!

فتّش في كتيّب السيارة. عرف أنه قتل طبيباً بيطريّاً للتوّ اسمه الأمين. وضع الأوراق بهدوء في جيبه وواصل السياقة.

لم يعرف أنّ الأمين كان قد أجرى عملية توليد لبقرة في إحدى المزارع في القوارشة، حين اعترض طريقه قرب مفترق قاريونس وتعقّبه. كان الأمين

متعباً لم يقاومه، فالبقرة عانت مخاضاً صعباً استنفد طاقته في نهاية يوم عمل طويل بدأه بعملية جراحية لفرس أصيبت بعيار ناري.

وما كان ليغامر بالخروج ليلاً في أثناء الانفلات الأمني لولا حاجته إلى المال، لا لحرصه على حياة البقرة.

عرض المزارع ألف دينار لإنقاذ بقرته ووليدها. وكان الأمين بحاجة إلى المال لتطعيم ابنه ضد شلل الأطفال في مصر. فذهب وأجرى العملية، وعاد بدم البقرة على قميصه الذي اختلط بدمه في الطريق.

سواءٌ أعرف القاتل ذلك أم لم يعرفه، فلن يغير في القتل حدةً. كان يقود السيارة، وهو يشعر بالرضا؛ فجوال القتيل لا بأس به أيضاً. يا لهذه الليلة المعطاءة! لم تبخل عليه بالسيارة، ولا بالمال، ولا بالجوّال، ولا بشوكولاتة الكِندر حتى!

حاصرته سيارتان، عند أحد المفترقات، واحدة من اليمين والأخرى من الشمال، وطلب منه مستقلوهما التوقف. خاف وظنّ أنّ الليلة لن تمرّ بلا متاعب، وداس البنزين معتمداً على تقدير فارق قوة المحرك والسرعة بين السيارة الجديدة التي قتل صاحبها وسرقها، وبين السيارتين الأُخريين.

طار في لمح البصر فلحقوا به، واتضح بعد مطاردة قصيرة أنّ السيارة حقاً مثل الحمار الذي ما إن يشعر بحرارة الضرب حتى يدفع إحدى ساقيه إلى الخلف قافزًا. فقفزت السيارة، ثم قفزت ثانية، ثم توقفت فجأة، فارتطم رأسه بالمقود وترضضت كتفه.

اعتقد أنه أصيب لأن رأسه كان ينزف. فتح الباب المغلَق أتوماتيكياً ليسعفوه أو ينهبوا السيارة ويتركوه. نزل ركاب السيارتين الأخريين مسرعِين وفتحوا باب السيارة. قال أحدهم وهو يشيع له رأسه عن المقود:

- حصل ضربة في رأسه ودايخ.

قال آخر:

- فرّغ فيه فكنا منه.

قال آخر:

- لا ما تخسرش عليه رصاص، اذبحه بالموسى.

صرخ فيهم، متوسلاً:

- أرجوكم، لا. أنتم مسلمون تشهدون أن لا إله إلا الله. ارحموني من أجل أطفالي.

قال أحد اللصوص:

- اذبحه على طريقة داعش علشان تمشي في داعش.

سحبوه إلى خارج السيارة متوسلاً، فحزّ أحدهم رأسه بسكين حادة، وهو يناشدهم الرحمة. توقف لسانه عند كلمة «حرام عليكم»، وجفّت فوقه آخر كلمات لم تخرج من حلقه مختلطة بطعم شوكولاتة كِندر. وضعوا الرأس على الجثة وأخذوا السيارة والمال والجوّالين واختفوا.

عثر أهالي المنطقة في الصباح على جثة طبيب بيطري مفصولة الرأس على الطريق السريع. وعثر أهالي منطقة قاريونس على جثة رجل مجهول الهوية ملطخة بدماء غريبة مع دمه.

أصرّت زوجة الأمين على أنّ القتيل المنسوب إلى المجهول هو زوجها، وتحفَّظت الشرطة الجنائية على الجثتين إلى حين تبيّن كيف وصلت أوراق القتيل الأوّل إلى جيب القتيل الثاني.

وخلص برنامج «سهام العدالة»، الذي تجتمع حوله العائلات الليبية كي تتعلم كيفية صوغ التهم وأدلة البراءة، إلى أنّ مجهولين في سيارة جِيب سوداء هم من قاموا بتصفية الرجلين ثم لاذوا بالفرار، وأن الزوجة تحوم حولها شبهات الخيانة الزوجية.

سمعت إحدى سيارات الجِيب السوداء بالجرائم المتَّهَمة عائلتها بارتكابها في بنغازي، فبعثت برسالة إلى قبيلتها في أميركا تخبرها فيها بأحوال سيارات الجِيب في ليبيا:

- أوضاعنا هنا سيئة جدّاً. ابقوا هناك، فالحال هنا إمّا جِيب سوداء ولاذت بالفرار، وإمّا جيب سوداء وستلوذ بالفرار.

يا لسمعتنا السيئة. أعتقد أنها الحقبة الأكثر سواداً لنا مع أسوأ قادة. ومن أجل تحقيق العدالة طلبت الحكومة الليبية من شركة جِيب، تغييرَ لون سياراتها المصدَّرة إلى ليبيا. ولاك الناس والصحافة سيرة زوجة الأمين حتى حوَّلوها إلى جثة على قيد الحياة.

٢٨

لوحة الصرخة الليبية

اختار عمود الإنارة الوحيد في القرية السقوط على رأس إخميس، وهو في طريقه إلى بيتهم. غالباً لا يستطيع أحد العودة إلى بيته أو مغادرة القرية من دون أن يمر بالعمود. وهو بالإضافة إلى كرامة الإضاءة بالليل والنهار، يستطيع أن يتحوَّل ذاتياً إلى إشارة ضوئية عندما يُخَيَّل إليه أن عربة توشك على الإصطدام به. ويستطيع إرشاد التائهين إلى وجهاتهم، والدفاع عن القرية إذا غزاها الجراد، وصناعة الظل الواقي من ضربات الشمس.

لم يمتعض إخميس أو يغضب من اختيار العمود التراثي له لتخصيصه بالسقوط، فهي مزية تستوجب الشكر حتى وإن أسقطت عينه الزجاجية، وقطعت الكهرباء عن القرية والرؤية عنه في اللحظة نفسها.

«رُبَّ ضارَّة نافعة وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

قال إخميس في نفسه، وزحف على ركبتيه متلمساً بيديه وبالعين الثانية

الضعيفة هنا وهناك لعلَّه يجد العين الزجاجية. بنى تصوراً ذهنيّاً عن ضياعها يساعده في البحث عنها. فهي إمّا غاصت في الرمال، وإمّا تدحرجت أسفل العمود أثناء سقوطه، فتهشّمت.

احتمال!

أما احتمال أن يعثر عليها أحدهم ويعيدها إليه فهو ليس من عادات أهل القرى وسوابقهم، بل ربما يجلب لهم النحس إن حدث فعلاً.

وضع إخميس كفَّه على الفراغ الذي خلَّفه عمود الإنارة في وجهه، وعاد إلى البيت آسفاً. رأته أمه من النافذة يخبئ نصف وجهه بيده، فأدركت أنّ ابنها ضيّع عينه كما فعل من قبل، فهبّت من تأثرها إلى الباب بصفحة الكسكسي التي تحملها بدلاً من أن تكمل طريقها إلى الطاولة، وصاحت في هياج:

- شنو صارلك يا منحوس، ضيّعت عينك مرة تانية؟

اعتقد إخميس من ذعره أنّ أمه ما أتت إلى الباب إلا لسكب صفحة الكسكسي على رأسه، فالتصق بالجدار صارخاً كما لو أنّ الكهرباء صعقته. خرج حينها والده مهرولاً بالعصا لاعتقاده أن ابنه تنقصه التربية، واختلطت في برهة جميع الأصوات في المنزل، جمادها وإنسانها، وبات على الجيران الذين وقفوا عند نوافذهم إيجاد تفسير للحوار العائلي الذي يسمعونه.

أما صفحة الكسكسي في يد أم إخميس فقد قاومت السقوط منها، وحاولت دفع والد إخميس بما فيها من حرارة بعيداً عنه.

- وووه عليَّ. راك تضرله عينه لخرا. غير أخطا وجهه يا فرحات وتربة أمك.

وترجِّح «السي آي أيه» أنّ صفحة الكسكسي الساخن أدّت دوراً محورياً في فك الاشتباك بلذعها والد إخميس في كرشه. وإلا فما انفضَّ الالتحام إلى يومنا هذا.

كان إخميس يخشى في أي ازدحام على عينه الزجاجية فقط. يترك مراقبة ما دونها ويظلّ يحيطها بكلتا يديه لحمايتها. فمن خصائص الزحام البشري، حيث هو، أن يسقط من المرء أيَّ شيء: محفظته، هاتفه، مفاتيحه، كلماته، لسانه، ألوان ثيابه...

فكيف الحال إذا ما كانت عين زجاجية حساسة رُكّبت له منذ أعوام. والمصنع الذي صنعها أعلن إفلاسه وأغلق. وصيانتها، إن أراد صيانتها، تتطلب سفراً إلى الخارج. والسفر، إن أراد أن يسافر، يلزمه مال كثير. وكثرة المال تتطلَّب سرقته. وسرقة المال تتطلَّب اعتبارها، في تصنيف الوظائف، عملاً، إذ لا يمكن للمرء أن يصبح مقتدراً بالأعمال الأخرى ولو عمل من الصباح إلى المساء.

كثرت حوادث تخدش عين إخميس الزجاجية في سنوات مراهقته، نتيجة تحرشه البصريّ بالفتيات. وكثرت حالات سقوطها في سنوات الشباب، نتيجة التحرش بالنساء، وهو ما شكَّل فضيحة عامة. فالناس جميعاً باتوا يعلمون لماذا تسقط عين إخميس منه، ولماذا تظل تتأرجح على خده إن لم تسقط. وها قد انتهت جميع المراحل المحرجة بسقوط عمود الإنارة وضياع العين نهائيّاً، ليطوي العمود الصفحة المظلمة من حياة إخميس، ويشغل الناس بالكلام عن مسيرة العمود النيرة بدلاً من لَوك سيرته. فلقد كتب له العمود المبارك النجاة منهم أياً كان ما فقده.

كان إخميس مجبَراً على تحمل اختراق برد الصباح لمحجره الفارغ، والوقوف باكراً أمام كاراج استخراج التراخيص البصرية وتجديد الرؤى في أحد شوارع المدينة القديمة، حيث الأشياء التي قد تتسبّب بالتهاب القحف الفارغ لا تُعَدّ ولا تُحصى. أوساخ هنا وهناك، مطاعم قذرة، طفح مجَارٍ، هواء ملوَّث، سيارات لن تسير ما لم تنفث عوادمها السوداء.

وقف إخميس منتظراً مجيء سيادة الموظف الذي في ناصيته مفتاح مكتب التراخيص، وقد رآه يتوقف في مطعم الفاصوليا والفلافل ويطلب حصته المعتادة:

-سندويش فاصوليا بالهريسة العربية[1]، واتنين فلافل بالله يا بيومي، وشيشة بيبسي مسقعة.

أخذ الموظف يلتهم ما جلبه له بيومي بشراهة إنسان عائد من مجاعة، لا إنسان غادر السرير لتوه. لم يطق إخميس برداً أو صبراً، فذهب إليه، مستفتحاً:

-صباح الخير يا خويا.

ردّ سيادة الموظف، بانزعاج وفم محشوّ بكتل الفاصوليا:

-خوك! خوك من وين؟

-آسف، آسف، قصدي مش أنت سيادة الموظف إللي عنده عهدة العيون الجديدة.

(١) من المقبلات في المطبخ الليبي

أجاب سيادة الموظف، بسخط ونرفزة:

- تفضَّل شنو تبي مني؟

قال إخميس ويده على عينه:

- عيني، عيني، نقصد عيني طاحت مني ونبي نستخرج وحدة جديدة.

وهنا، كأنّ إخميس أخطأ وشارك الرجل في مائدته الحادة، فانتفض سيادة الموظف، مزمجراً:

- ما تشوفش فيَّ مشغول في أمر خاصّ؟ ليش تخلطوا ديمة بين العام والخاصّ؟

- آسف... آسف! أعتذر عن التشويش في الرؤية. شهية طيبة... شهية طيبة.

ترك إخميس سيادة الموظف يجهز على ما في الصحون، وصاح لبيومي:

- يا بيومي بالله كاشيكين[1] هريسة عربية لسيادة الموظف، وبيبسي مسقعة على حسابي.

بعد ساعة من الفاصوليا والفلافل والشاي والأحاديث الرياضية والسياسية والدينية والماورائية، إضافة إلى قضية فلسطين بالطبع، تقدّم سيادة الموظف نحو الكاراج متباطئاً، سحب الباب إلى أعلى في تثاقل، كأنه لا يرى إخميس المتجمّد من الوقوف.

(١) الكاشيك هو الملعقة.

جاء رجل بعين زجاجية من أقصى مطعم الفاصوليا، انبعثت منه رائحة غراء جديد. سأل إخميس عما إذا كان ثمة دوام اليوم أم لا، فأجابه إخميس والدموع تنزل من عينه الأخرى نتيجة البرد وأشياء أخرى:

-اسأل سيادة الموظف. أقسم بالله أنا هنا من الساعة سبعة وماني عارف شي.

وكان الرجل من أولئك الذين يسألون الغرباء دائماً، وينتشرون بيننا منذ القرن الرابع الهجري.

-بخصوص شنو أنت جاي هنا؟

أجابه إخميس، وهو يردّد: آه يا عيني، آخ يا عيني:

-استخراج عين جديدة يا خويا.

انفجر الرجل ضحكاً، كأن إخميس قال نكتة في شرف أحدهم، ثم كشف عن نصف وجهه، موضحاً:

-إذا حصّل وجهي هذا عين قبلك تو تحصّلها أنت! شوف عيني نلصق فيها تلصيق من سنين، لأنه مفيش عيون جديدة عندهم.

كانت إحدى عيني الرجل باردة والأخرى حارّة. الباردة معنية بالنظر إلى الأشياء الحارّة، والحارّة معنية بالنظر إلى الأشياء الباردة. وكان الرجل في صغره يساعد والدته في تسخين الأشياء التي تحتاج إليها وتبريدها: مثلاً تبريد شقيق له أصابته الحمى؛ تسخين مياه الاستحمام في الشتاء؛

كيّ الملابس وتبريد المتبقي من الطعام، ثم تسخينه. ثم حين حل الرخاء والرفاهية بالبلاد، ولم تعد الكهرباء تنقطع، والملابس تصل مكويّة من حبل الغسيل، ويأتي الطعام مطهواً من لدن نفسه بمجرد أن تلتقي الخُضَر في المطبخ وتتعارف فيما بينها، تعرَّضت عين الرجل الزجاجية للبطالة وغدت تسقط وحدها في أثناء الصلاة أو لعب كرة القدم. وها هو أمام كاراج التراخيص بسبب ما جرَّته عليه الرفاهية.

أوشك إخميس أن يصاب بالإحباط، بعد سماع التاريخ الموجز للعيون، لكن أجّله قليلاً حتى استوى سيادة الموظف في كرسيّه، وأشعل التدفئة والتلفزيون، وثلاث لمبات ٣٥٠ وات، وسيجاراً.

- شنو تبي؟

سأل إخميس، عابساً من دون أن يرمقه بنظرة.

أجاب إخميس:

- استخراج عين جديدة وتصريح تجوُّل، بارك الله فيك.

تمخّط سيادة الموظف بقايا الفاصوليا والفلافل:

- الاستخراج شيء، وتصريح التجوُّل شيء آخر.

- أعطِني، أطال الله عمرك، المتوفر عندكم وبعدين التاليات لهن الله.

فتح سيادة الموظف أحد الأدراج باحثاً عن قلم، ثم عنّ له تشغيل جهاز الكمبيوتر أمامه، فرمقه إخميس بنظرة خاطفة، قائلاً في نفسه:

بيبه... تو يبدا يفتش على ورقه للكتيبة، بيبه المزيد من المماطلة!

لكن سيادة الموظف لم يبحث، واكتفى بالقلم فقط.

-استخراج عين مستعملة له متطلبات تختلف عن استخراج عين جديدة.

وأخذ يكتب على الكمبيوتر، والقلم بين أصابعه وإخميس بين يديه يلقي عليه بعض الأسئلة قبل تقرير مصيره.

-المستعملة تتطلّب شهادة خلوّ من السوابق، ودمغة، وكتيب عائلة، ورقماً وطنيّاً، وأربعة شهود، و٥٠٠ دينار مع تقديم طلب. أما الجديدة فتتطلّب، إضافة إلى ما سبق، مئة دينار فقط من مئة رجل في القبيلة، وإجراء امتحان قيادة جديد في إدارة المرور، قسم المركبات، مع شهادة «توفل» سلاح تفيد باجتيازك امتحان الرماية بالمسدّسات والبنادق البعيدة المدى.

-لكن، أنا في حياتي ما لمست سلاح! في حياتي!

ضحك سيادة الموظف حتى خرجت كبريتات الفاصوليا منه، واعتقد إخميس أنه يضحك بسبب طبيعته الحساسة، فشعر بالخجل من نفسه. ثم هدأ مع تلاشي غاز الفاصوليا تدرّجاً، وقال:

-دبِّر رأسك. هذي هي الشروط.

-ما تقدرش تساعدني بوحدة نص عمر؟

سيادة الموظف:

- عندي وحدة حاطينها عندي ناس من زمان والدهم مات وخلاها لهم، ما بوش يدفنوه بيها، لكن كان تبيها حط في بالك إنها رزق ورثة. والبنات يبن عين بوهن للذكرى، والعيال يبوا البيع لأن كل واحد يبي يدير مشروعه الخاص.

- ورثة لا... مشاكل واجدات فكني منها.

فتح سيادة الموظف درجاً وأخرج علبة حديدية لم يفتحها، لكنه وضع يده عليها، وبدأ يتحدث عما في داخلها كأنه يقسم على المصحف:

- هذي عين واحد انعور في الحرب وبعدين استشهد، الله يرحمه وما لقوش جثته لليوم. يعني عين مفخرة تمشي وأنت رافع رأسك فوق.

ارتجف إخميس، وقال بلسان معضوض:

- الله يرحمه، لكن عن تجربة عين المحارب تقعد ديمة مسكونة بالموت. وأنا ما ليش فيه جو الحرب. أنا راجل شاعر مرهف المشاعر، نخدم في كوشة[1]، وما نعرفش إلا نار الحب ونار الكوشة، ومش ناقصني نار الحرب الصراحة، فشوفلي حاجة أخرى أقل مأساوية، يرحم بوك.

- راجي نكلملك واحد صاحبي في بلدية تيكة عنده جدّه يقطروله[2] من أيام، والشايب كنز، سنون ذهب وبلاتين وعيون قزاز خضر، وحوض بلاتين، فكوه طرف طرف الجماعة قبل يمشي على حاله، تي حتى رقاد في المستشفى ما خلوه يرقد، خافوا عليه ينسرق.

---

(١) مخبز.

(٢) يحتضر.

- بالك يطول وما يموتش وأنا مستعجل؟

- تي حيَّرتنا يا راجل، باهي عندي وحدة في شنطة السيارة، زمان كنت مركّبها فريتشا، راجي نجيبها لك بالك تصلح بيك.

غاب سيادة الموظف لحظات، ثم عاد بكيس بلاستيكي في يده، أخرج منه العين ونفخ الغبار عنها من اتجاهات عدّة، ثم مسحها بكمّ قميصه وأعطاها لإخميس. ركبها إخميس مبسملاً، ثم خرج لتجربتها أمام الكاراج.

سأله سيادة الموظف:

- ها، شنو رايك؟ مش غالية راهي.

- نشوف في الناس واضحين والشارع كله باين تمام. لكن خلفية الصورة كلها سودة، كأنه مش نهار أبداً.

اقترب سيادة الموظف من العين، حاول تعديلها والنفخ عليها ومسحها.

- وتوا؟

- ما زالت الخلفية السودة قاعدة.

قال سيادة الموظف، بشيء من الغضب:

- تي هذي الحياة السودة اللي عايشينها يا راه. اسلح... اسلح.

نزعها من محجرها، ورماها في الكيس مرة أخرى. وهكذا، صار لزاماً على إخميس الالتحاق بإحدى الميليشيات لإجراء قياس النظر في إطلاق النار

من مسدّس، ومن بندقية، ومن رشاش، ومن مدفع، ثم تحديد مستوى العين التي يحتاج إليها وحجمها وأبعاد الرؤية وما يتعلق بالتفاصيل الفنية كافة التي يتطلّبها التصويب بسلاح الميم طاء.

ارتجّت عين إخميس السليمة في محجرها، إذ لم يسبق له أن تعامل مع سلاح. ارتجّت أمام أنواع الأسلحة كافة، ثم شعر بها تتدحرج على وجهه وتسقط أمامه، ليصبح وجهه فارغاً.

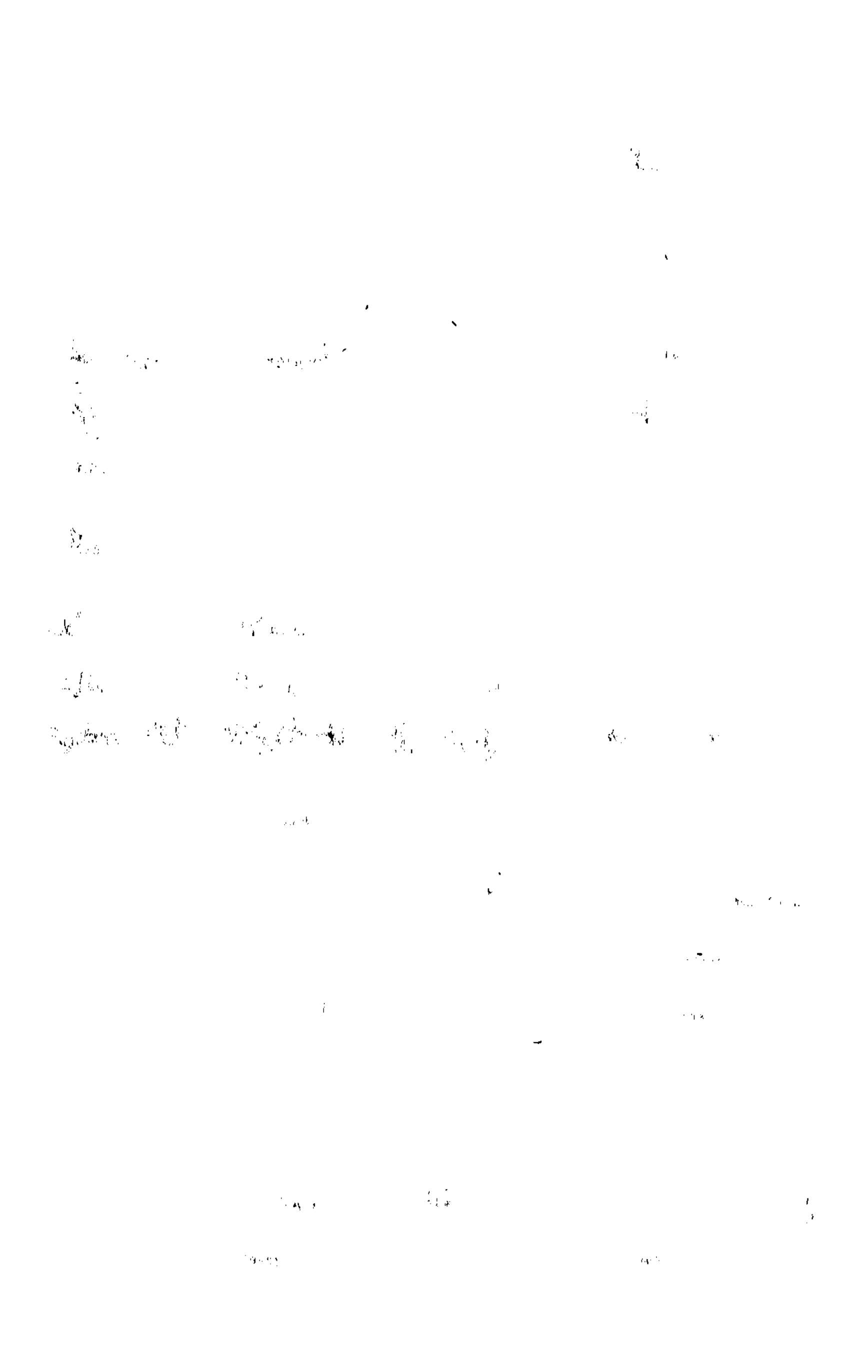
يا ألطاف الله.

ملأ صراخه جميع الأماكن، ودخل السرايا الحمراء وخرج من حلق أحد التماثيل المخبّأة هناك، ثم دخل في سمع تمثال إلهة الحب الليبية، فحطّم الحب كما تُحطِّم الفأس المرآة، ثم غادره إلى الطريق الساحلي هائماً فيه، مردّداً:

- تريحتوا توا... اكم طلعتوا حتى العين الصاحّة... تريحتوا توا؟

خرج من محجري إخميس محتوى رأسه، فانسكبت ذكرياته على الطرقات، وتبعثرت أفكاره واندلقت أسراره بين المجارير، واختلطت بمياه الأمطار والمجاري في طريقها إلى البحر. حتى قيل إنّ الصرخة ظلت تتردّد على الطريق الساحلي الرابط بين طرابلس والزاوية، تغلقه حيناً وتفتحه أحياناً إلى يومنا هذا.

ويضيف شهود عيان أنهم رأوا صرخة إخميس هناك تشدّ رأسها وتصرخ، وأن قوة صراخها تُدخل الجَمل في القِدْر، والرجلَ في القبر، وتجعل الجانَ مرئياً، والإنسَ مخفياً، وعمدانَ الإنارة على الطرقات مرمية.



عرض مسرحي

فرغت البنوك والثلاجات، بشكل ما، في الفترة نفسها التي امتلأت فيها الصيدليات بفاتح الشهية، وحبوب منع الحمل، وأدوية جميع الأمراض. اشتدت بنا وطأة الهم والغم... طلبنا مساعدة الله لمواجهة الأمر... لحسن الحظ، لم يكن لله مندوبٌ أو سكرتير أو وساطة، وإلا لانتهى الأمر بنا جياعاً عطاشاً.

جاءت المساعدة. وجدناها الساعة الخامسة في عقر دارنا. أرنبان في مرأب السيارات. كانت فرحة لا مثيل لها... كيف دخلتا هنا؟ من أوصلهما إلى المرأب المغلَق؟ كيف وصلتا سالمتين على الرغم من الموت المتربِّص تحت الأقدام في كل حين؟ كيف نجتا من الغرق من المياة السوداء الطافحة، ومن كلاب المدينة الجائعة؟ كيف نجتا من كلّ ما يشكل خطراً على كائن حيّ يطل برأسه؟

ألا يمكن أن تكونا فارّتين من أرض حفرتها الألغام والتفجيرات؟

هل جاءتا على ظهر جرّافة سلاح، وتاهتا حتى وجدتا نفسيهما في المرأب؟

لا بدَّ من أنها يد المولى وحدها، عز وجل، التي تستطيع دخولَ بيتِنا من دون علمنا... هو وحده يتصرف بطريقته في تدبر أمرنا وأمر ثلاجتنا.

لماذا أرنبان، ولماذا لا تجريان على عادة الأرانب؟! بل إنهما بطيئتان مثلنا، حتى كأنهما من العائلة نفسها، ليس فقط من حيث البطء، بل لأنهما لم ترهبا أو تقاوما السكين حين سارع أكبرنا إلى ذبحهما في المنور الداخلي.

لقد ساعدتاه ومدّتا رقبتيهما وأغمضتا عيونهما في صلاة أخيرة!

هل يُعقل أنهما جاءتا لتنتحرا عندنا، ووجدتا الوضع المناسب للقيام بهذه العملية؟

تجهَّزَ الفرن لهما واستعدّ الطاجين... أكلنا، حامدين شاكرين، متدبِّرين في معجزات الله، واستذكرنا قصصاً قدَرية مشابهة لقصتَنا. وكدنا نبيت ليلتنا تلك على شعور روحي مثالي بأن عالم الغيبيات شرَّفنا واتخذنا مثلاً. ثم لمّا أخرجنا كيس القمامة، وفيه ما تبقى من فضلات الذبح والعظام، وجدنا شبان المسرح الوطني المجاور لبيتنا يقلبون الشارع بحثاً عن أرانب المسرحية، كما قالوا... أجل، مسرحية جهَّزوا لها أشهراً طويلة في إطار مقاومة الإرهاب بالفن.

كانت تنقصهم فيها الأرانب التي تنازل لهم عنها معمل كلية العلوم بعد نفاد صلاحيتها للتجارب.

كانوا يرتدون أزياء العرض ويفتشون قبل العرض بساعات.

الراعي الفقير كان يفتش؛ المدرّس الذي لم يقبض مرتبه؛ بيادق الشطرنج؛ المهرّج، وروح محمد خبزة في زاوية الشارع، حيث كان يقف في انتظار جامعي الخبز؛ سمكة الأرنب القاتلة؛ الألغام؛ الشهداء...

لكن أكثر من أدخل الرعب في قلوبنا هو المهرّج. كانت نظراته وقفزاته غريبة إلى حدّ أنّ التعرض لها يوشك على إخراج الأشياء من بطوننا، فما بالك إن كانت أرانبَ درَّبها أشهراً.

الحمد لله، ليس فينا من يهوى المسرح وهراء المقاومة بالفن.

أغلقنا بابنا على المسرحية الأولى، ولم نفتحه حتى بدأت نتائج بحوث كلية العلوم تظهر علينا. وتلك مسرحية أخرى!

البنكينه

كتبت ابنة جيراننا قصة أُذيعت في الراديو، لم نسمعها نحن، لكن الجيران سمعوها وانتظروا عودتنا في الشارع ليخبرونا عنها.

كنا صباح ذلك اليوم في البنكينه نشتري الأسماك، نتفحّصها ونسأل الصيادين عن أسعارها، فتجيبنا الأسماك، لأن الصيادين عادة ما يكونون سكارى وكاذبين.

كنا نسألها كذلك عن حالها: هل هي طازجة، أم لا؟ وإذا كانت قد أصيب بالديناميت الذي اصطيدت به، وهل نهشت جثثاً لمهاجرين قدامى أو حديثين؟

وكانت الأسماك تجيب بـ «لا» بهز الذيل، و«نعم» بإغلاق العينين. ولم يحدث قط أن كذبت سمكة أو أعطت إجابة خاطئة!

كيف يستطيع المرء، بعد ذلك، تصديق الناس والثقة بما يقولونه؟

كان السمك الذي حملناه في الكيس يستمع معنا باهتمام إلى قصة البنكينه التي يرويها جارنا السادس، ولا يكاد يصدق مثلنا أنّه يتحدث عن البنكينه إياها.

حتى إنّ سمكة كلامار فتحت فمها دهشة وتعجباً، وخرجت منها أسرار أعماق البحار المكتومة في جوفها، وشيء من صرفنا الصحي، ونفضت سمكة شولا نفضتها الأخيرة على وقع أحداث القصة.

لقد قتلتها القصة...

كلا، بل لقد قتلتها الكاتبة!

ولم نكن، جرّاء ما سمعنا، أفضلَ حالاً من أسماكنا، فقد استفزت الكاتبة تسامحنا، وأثارت غضبنا حين تطرقت في القصة إلى سابع جار، وتركتنا نحن ورابع جار وخامس جار وسادس جار؛ ذاك الذي يعيش فوق سطح بيت الخامس، وأخبرنا بالقصة كاملة.

فلماذا تجاوزتنا الكاتبة، يا ترى، وتحدثت عن جار يلبس المستعمل، ويعيش جسده على الخُضار المتعفِّنة، ويستحم بالشامبو اليوغوسلافي، من دون أن تشعر بالخجل من فعلتها؟

ذهبت إليها، نيابة عن جميع الذين منحوني قبضاتهم لطرق الباب وردّ الاعتبار. نظر جرس بابها إليّ باحترام، وسألني:

ماذا تريد يا سيد؟ فنظرت إليه شزراً وبصقت في اتجاهه فخاف، وأظنّ أنّ صوته اختنق منذ تلك البصقة.

فتحت الكاتبة بعد طرقتين أحدثتا شقّاً في الباب، خرج منه الضوء ونصف جذعها الأيسر. كانت مبتلّة بالكلمات، وبالكاد تستطيع الانتباه لشيء. نظرت قبضتنا إلى يديها من دون تحية، ولم تُتِح لها فرصة استعمال أي كلمة امتثالاً لقول لا أدري من قائلُه:

«إياك أن تعطي كاتباً المجال كي يتحدث لأنه سيقنعك بأنك مخطئ فتقتنع بكلامه وبغبائك».

لهذا داهمتها بقبضتنا قائلاً:

- لماذا ذكرتِ كل شيء في الحي، ولم تذكرينا في القصة نحن الذين مددنا إليك يد العون مراراً وتكراراً؟

كانت ثمة نسخة من القصة في قبضتي ألوّح بها في أثناء الحديث.

ردّت الكاتبة بهدوء:

- كانت القصة عن حيّنا السابق حيث توجد البنكينه، أي قبل انتقالنا إلى هنا، إلى اليابسة من الماء.

- لماذا لم تذكري أنّ أحد الجيران أعطاك حذاءً؟ حتى وإن دارت القصة في مكان فيه ماء، وكانت علاقتنا الوحيدة بالماء هي السيفون ومطر الأسقف في الشتاء. لماذا لم تذكري أن أحداً أعطاك حذاء؟

- لأنك أعطيتني حذاء نمرته ٣٩، بينما الطفلة في القصة صغيرة ولا يمكن أن تنتعل حذاءك نفسه.

- وماذا يعني هذا؟ كان يجب عليك تغييره في القصة ليناسب قدميها. الكاتب المبدع يستطيع أن يعدّل النص وفقاً للمتطلبات.

- حسناً، لا تغضبْ، سأعدّل القصة في النشر الثاني، وآخذ بملاحظتك.

أغلقت باب الخصومة، وهدأ غضبي كثيراً حتى رأيت بيتنا أعلى بيوت الحي، وسروالي المنشور في البلكون يحلّق بمقتضى ارتفاع البيت كطائرة من دون طيار.

وجدت التعديل في بداية القصة، في النشر الثاني لها، لذلك لم أهتم بقراءتها حتى نهاية أحداثها. فالمهم أنّ الجزء الذي يتحدث عنّا كان موجوداً بالشكل الذي أريده، والبقية لا تهمني.

أخذ أحد الجيران الجزء الذي لا يهمّني في يده، وذهب غاضباً إلى بيت الكاتبة. وأظن أنه طرق الباب بقدميه لأنهم فتحوه بسرعة كما لو أنهم كانوا وراءه في انتظار من يقرعه.

لقد كان طرقه عظيماً بمقدار الجزء الذي يهمّه من القصة.

احتجّ الجار لأن البيت الذي ورد ذكره في القصة يأتي مكان بيتهم التاريخي. وبما أنّ أرواح أجداده خرجت في هذا البيت، فهي، إذاً، ليست أرواح قطط حتى يتم تجاهلها. وشدّد الجار في كلامه على أهمية التاريخ، وأن على أحدهم أن يكتب ولا يقنط من شحّ القراء، فسيرزق

الله المكتوب من يقرأه، ولا بدَّ من أن يأتي هذا «الأحد» ويخبر البقية بالمضمون ليتبنّى الجميع، من ثم، وجهة نظره، وتسري الثقافة في المجتمع سريانَ النار في القش.

يجب ألا نهمل تثقيف القش.

استسلمت الكاتبة أمام الزبد المتطاير من فوهة الجار، ووعدته بأنّها ستعدّل الفقرة المعنية في النشر المقبل، وستدخل التغيير ليس على البيت الذي ظنّه بيتهم في القصة، بل على البيت المحاذي له، مستغلة هروب أصحابه منه من دون أن تذكر أنّ سبب فرارهم هو التحاق ابنهم بتنظيمات متطرفة وإقدامه على ذبح بعض العسكريين.

إنها لن تشير كذلك إلى زليتن التي آوتهم، تجنباً للتشهير.

أدخلت الكاتبة التعديلات التي سمعتها من الجيران، واحداً تلو الآخر، وأدخلت أيضاً تلك التي لم تسمعها، لكن توقعتها على سبيل التكهن، ممن نزحوا من الجيران، الذين سيطالبونها بحصّتهم من التعديل ما أن يعودوا إلى بيوتهم.

لذا، اختصرت الوقت، وفكرت فيما يدور في أذهانهم، وسرعان ما وجدت مكاناً شاغراً لهم.

فكرت بذهن مخينيب في مخينيب، وفي بوعجيلة بذهن بوعجيلة، وفي زرقون بذهن زرقون، وفي حليمة بذهن حليمة. حتى الحاجّ اللافي الذي نزعوا آخر قطعة بلاتين من جسده بعد أن لفظ أنفاسه، فكرت فيه من

باب الاحتياط، كما لو أنه لم يستنفد أرواحه السبع، وسيعود حيّاً بإحداها في أي لحظة.

استرضت الكاتبة الجميع وامتثلت لطلباتهم بمشقة، حفاظاً على سلامة بابها من طرق أيديهم، ووجهها من رذاذ أفواههم. وهكذا قُدّر لشق الباب أن يصغر وتتوقف هي عن الخروج منه وأن تعود للباب شخصيته المستباحة.

في يوم الجمعة الماضي، رأينا الكاتبة في الجامع، كان يبدو عليها التجلي والصفاء. وبما أنها المرة الأولى التي تظهر فيها هناك، اعتقدنا أنها قدمت لإعلان التوبة لنا أمام الله ممّا كتبت. انتاب الجميع الشعور نفسه كما لو أنهم جميعاً أكلوا من سمكة الأرنب السامة نفسها وتسمموا، ما عدا العجوز التي انفجرت لعناً وشتماً بالكاتبة، يبدو أنها تسممت بشيء آخر!

هب الجميع للإمساك بجدران الجامع وأعمدته خشية سقوطها أو تقوّسها في إثر ما تفوهت به العجوز المحتدة:

- ذكرتِ في القصة أنني بلا أسنان، وأنني أنقع الخبز كي يترطّب حتى أستطيع مضغه. عليك اللعنة! هل أبدو لك كذلك؟

- كلا... أنا لا أعنيك أنت في القصة يا حاجّة. فمن أقنعك بأنّك المقصودة وأنّ الأسنان أسنانك؟

- بلى ذكرتني بالتفصيل. قلت عجوز شمطاء، أسنانها ساقطة، وتحافظ على أداء الصلوات في الجامع، وترتدي ثياباً تقليديّة، وتحمل عصاً. ذكرت كل هذه المواصفات ولا تريدنني أن أتعرف إلى نفسي في قصتك؟!

أخرجت العجوز من صدرها الجزء الذي اقتطعته من القصة، ولوّحت به كدليل إدانة.

سقطت من الصدر أيضاً قطعة نقدية وموبايل نوكيا ١٠١١، أعادتهما الكاتبة إليها، قائلة:

- لا تغضبي يا حاجّة، برأيك كيف أجري التعديل على هذه الشخصية المحورية في العمل بما لا يغضبك ولا يجعلك تشكّين في أنّك المعنية عندما يقرأ لكِ حفيدكِ القصة؟ ساعديني وقولي لي كيف؟

حكّت العجوز أنفها حتى تحرك من مكانه، وحدّقت في عيني الكاتبة ثوانيَ، ثم قالت بصوت خاشع:

- بما أنّك تريدين رأيي، تستطيعين أن تجعلي العجوز في القصة تشبه أم الخير، فهي الأخرى عجوز تقيم الصلاة وأسنانها ساقطة، ولا أحد يعرفها في الحي أو يسأل عنها. لو كتبتِ أنها أم الخير، هكذا بالبنط العريض، لَمَا عرفها أحد. جرّبي... جرّبي.

فالكتابة تَحَرُّر وانطلاق.

- أووو يا حاجّة! لا يحتمل العمل أن أُدخل إليه شخصية أخرى.

- كيف لا؟! الكاتب الناجح هو الذي يخلق حيّزاً لحدث جديد أو لشخص غير متوقع ظهوره في القصة. الكرسي الذي يحمل اثنين يحمل ثلاثة. أنت شيطانة كبيرة، وتستطيعين ملء حافلة تقلّ ستة ركاب بمئة راكب وواحد.

- ومَن هذا الواحد؟

- وما يدريني! أنت أدرى... أنت شيطانة كبيرة تستطيعين أن تعرفي كل شيء. ذكرتِ أنّ أم السعد تتقاضى راتبين من الدولة وأنها تحتال. عرفتِ بالراتبين، فهل سيصعب عليك معرفة من يكون الراكب؟ ثم لماذا الحسد. زوج مات أورثني موتُه راتبَه التقاعديَّ، وابن بارّ أعطاني منصبه في البرلمان راتباً آخر من باب أنني أمّ النائب؟ إنّ هذه المواصفات الشخصية مدروسة بدهاء، ولا يمكن أن ترد في قصة كهذه عبثاً، فكفّي عن التلاعب. أنت لا تعرفين أم السعد دغيم بعد.

هدأت العجوز، فأرخى الجميع أيديهم عن الأعمدة والجدران التي احتضنوها، ما عدا واحداً وجد راحته المفقودة في العمود، فصارت صلاته احتضان الأعمدة.

النشر الثالث:

يوم الأحد، دخلت الكاتبة بيتها، عائدة بالعدد الجديد الذي أجرت عليه التعديلات المناسبة لجيرانها الغاضبين.

وجدت الجارات اللواتي عدن من نزوحهن، جالسات في الصالون لدى أمها. تساءلت الكاتبة:

- ما الذي يحدث يا أمي؟

كانت كل واحدة منهنّ تُمْلي على أمها التعديل الذي تريده في القصة. والطلبات تتراكم تباعاً على طاولة نامت تحتها بيكي، قطة المنزل.

أصبحت القصة مختلفة تماماً، وبحاجة إلى عربة متحركة تقلّها من الصالة إلى القبو، حيث تتقوقع الكاتبة هناك للكتابة.

وقفت الكاتبة أمام الطاولة، واضعة يديها خلف ظهرها كما كان بيتهوفن يفعل عندما تعزف في رأسه موسيقى لا يستطيع سماعها بأذنيه. ولولا أنّ بيكي قفزت مذعورة فجأة إلى القبو في إثر الطرقات العنيفة التي تلقّاها باب البيت، لما أحست الكاتبة بما يحدث حولها.

«افتحوا بسرعة... افتحوا وإلّا نهدّوا البيت على روسكم».

فتحت إحدى الجارات، فباب الكاتبة صار باب الجميع من دون تكلف. كانت ميليشيا «الكاني» هي الآتية... سحب عناصرها الكاتبة من ذراعيها المتشابكتين وراءها. تعرفوا إليها من وضعية يديها... لم تلتفت الكاتبة إليهم... ظلّت تنظر إلى الأوراق على الطاولة والطلبات التي تسيل منها... انسابت مع سحبهم إياها كما لو أنّها تنصاع لموسيقى تراثية ليبية لا يفلت من إيقاعها أحد.

- ذكرت الميليشيا في القصة بالحرف، ولم تسمِّها جيشاً وطنيّاً، لذلك قبضت عليها.

- هذا ما فعلته حقّاً. «الكاني» ميليشيا من قطّاع الطرق المجرمين.

- اللواء السابع اقتادها إلى جهة مجهولة.

- اششش... لا توجد جهة مجهولة، ليبيا صغيرة.

- علينا نكران أي علاقة لنا بالقصة وكاتبتها، والتخلص من طلبات التعديل فوراً قبل أن تفتش الميليشيا القبو. نعني اللواء السابع، سامحنا يا رب.

- وما العمل؟

- نفلت المجاري على القبو.

- لا، المجاري لا. حدث من قبل أن دخلت المجاري مصرفاً، وسبّبت تلف الأموال المودعة فيه. المجاري لا تملك الخطة ذاتها حتى تطبقها على المصرف وعلى القبو. لا، أرجوكم، ابتعدوا عن استعمال المجاري فقد سبق استخدامها على نطاق واسع.

- ما تقوله صحيح، فنهر المجاري لا يمكن أن يكون النهر نفسه مرتين، علينا تغيير التكتيك إلى الحرق.

- نحرق القبو.

همس الجميع: رأي سديد. هيا بنا نحرق القبو.

للمرة الأولى في تاريخ القص، تبكي قصة من شخوصها وواقعها، وتسمعها قصص العالم القصيرة والطويلة كيف تئن:

- لن يستطيع أحد وضع نهاية لي. سأكون صريحة معكم، أنا أكرهكم جميعاً يا مَن وردت شخصياتكم داخلي. سوف أفضحكم كلكم، وأقول إنّ جميع مَن وردت أسماؤهم وشخصياتهم في القصة يتطابقون مع الواقع تماماً، وليسوا من قبيل المصادفات.

بكت القصة بكاءً غزيراً، ونفقت بيكي في القبو اختناقاً، ثم حلَّ الأسبوع الذي عُيِّنت فيه العجوز أم السعد دغيم ملحقاً ثقافيّاً في مصر، واعتبرت الأمم المتحدة مجاري ليبيا خطراً بيئياً يجب إخضاعه للحماية الدولية.

ثم مرّ أسبوع لم يحدث فيه شيء، فدهشت أسماك البنكينه حتى بهتت وظنّت أن في الأمر مؤامرة!

روما ـ درهام

٢٠١٨

المؤلفة

أكاديمية وروائية ليبية

حاصلة على درجة الماجستير في التربية. عملت محاضرةً في جامعة قاريونس، بنغازي. حازت درجة الدكتوراه في العلوم الإنسانية من جامعة لا سابينزا في روما، ركزت أبحاث الدكتوراه على تجارة الرقيق في ليبيا وتداعياتها على المجتمع الليبي في الفترة العثمانية (١٥٥٢-١٩١١) .

صدر لها

روايات :

- **وبر الأحصنة**، دار الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥ .
- **مضمون برتقالي**، دار شرقيات، القاهرة ٢٠٠٨ .
- **زرايب العبيد**، دار الساقي، بيروت ٢٠١٦.

مجموعات قصصية:

- **الماء في سنارتي**، منشورات المؤتمر، ليبيا، ٢٠٠٢ .
- **قصص ليست للرجال**، دار الحضارة العربية، القاهرة ، ٢٠٠٣.
- **طفل الواو**، مجلس الثقافة العام، ليبيا ، ٢٠٠٦
- **الملكة**، مجلس الثقافة العام، ليبيا، ٢٠٠٨ مترجمة إلى الإيطالية.
- **الجدة صالحة**، دار الخيال، بيروت، ٢٠١٢ مترجمة إلى الإسبانية.
- **كتالوج حياة خاصة**، دار أثر، الدمام ٢٠١٨ .

القصص المترجمة:

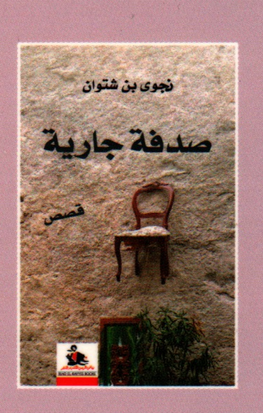
- **الرحلة العفوية**، قصة قصيرة نشرت في كتاب أنطولجيا بعنوان القصة القصيرة الليبية المعاصرة ترجمة إيثان شوين- منشورات الساقي ٢٠٠٨ .
- **سيرة البركة والبيان**، قصة قصيرة نشرت في أنطولجيا بعنوان بيروت ٣٩، دار نشر بلومزبيري ٢٠٠٩ .
- **فخامة الفراغ**، قصة قصيرة أُدرجت ضمن مجلة بانيبال في عددها الأربعين الخاص بملف الأدب الليبي ٢٠١١ .
- **تذكرة العودة**، قصة قصيرة نشرت في أنطولجيا بعنوان قصص من الأمم الغير مرغوب فيها، دار كوما برس، مانشستر، المملكة المتحدة ٢٠١٨ .

مسرحيات:

- **المعطف**، وزارة الإعلام والثقافة الإماراتية، الإمارات ٢٠٠٣ .

الجوائز:

- فازت مسرحية المعطف بالجائزة الثالثة لمهرجان الشارقة للإبداع العربي في دورته السادسة ٢٠٠٣ .
- حازت رواية وبر الأحصنة جائزة "أفضل رواية عربية" في مهرجان البجراوية الأول للخرطوم عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٥ .
- اختيرت واحداً من أفضل ٣٩ مؤلفاً عربياً دون سنّ الأربعين من قبل مشروع بيروت ٣٩ لمهرجان هاي فيستيفال ٢٠٠٩ .
- أدرجت روايتها زرايب العبيد في القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (IPAF) ٢٠١٧ .
- حصلت علي زمالة بانيبال للكاتب الزائر، كلية سانت أيدين، جامعة درهام، المملكة المتحدة ٢٠١٨.
- اختيرت كعضو في لجنة تحكيم الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق) ٢٠١٨ .



نجوى بن شتوان

صدفة جارية

هذا الكتاب يُجلسك على مقاعد الفرجة بلغة تنهمر منها الألوان، كي تكتشف أنك لا تتفرّج على الآخرين فقط، بل أنت أيضاً محطّ فرجتهم.

يتحدّث عن المبكي المضحك وعن المضحك المبكي.

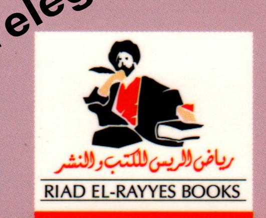
كتاب لا يجامل أحداً ولا يهادن موقفاً وينتمي إلى الجميع بفرديتهم.

كتاب لا يفترض وجود الجماد، كل شيء فيه ينطق ويشعر ويحسّ ويعبّر ويملك روحاً.

كم من الصور والفانتازيا ترسمها لغة سهلة ممتنعة، وأسلوب لمّاح صاغَ من اليومي والمهمل حدثاً.

كتاب يتناول الحاضر قبل أن يتحوّل إلى زمن آخر أو يسيل إلى لا شيء.

الفانتازيا في أشدّها
الواقع في مرارته
العادي في ما فوق اعتياديته
واللامتوقع في واقعيته.




ISBN 978-9953-21-709-3